وزارة الثقافة

من القدس إلى لندن

عزمي النشاشيبي

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

من القدس إلى لندن

تأليف: عزمي النَّشاشيبي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٦

عن المطبعة التِّجاريَّة في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: عزمي النَّشاشيبي
اسم الكتاب: من القدس إلى لندن
الطبعة الأولى: ١٩٤٦ عن المطبعة التِّجاريّة في القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية
صف وتنضيد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

من القدس إلى لندن

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

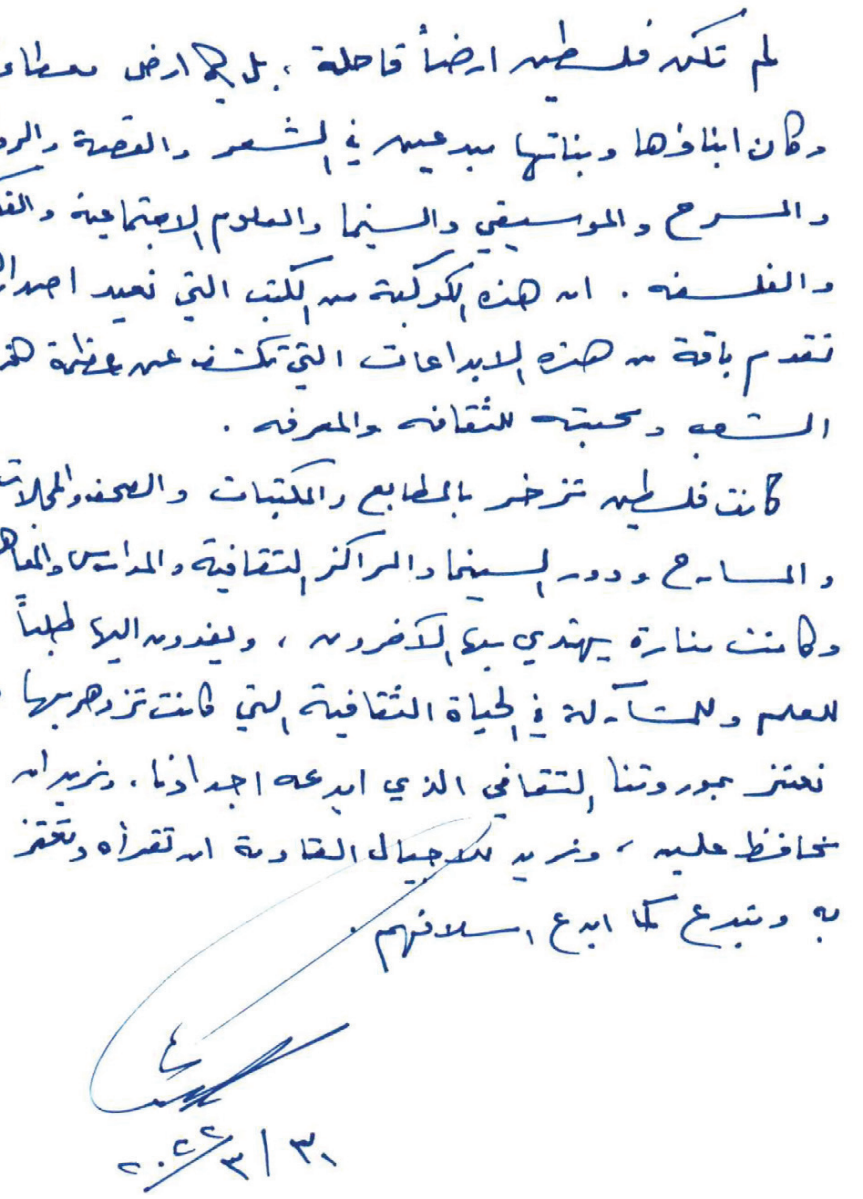

المقدِّمة

أيُّها القارئ الكريم!

•••

إن كنت تبحث عن علم أو أدب، فدع هذا الكتيب جانبا وابحث عن غيره. فالكتابة في العلوم والآداب تحتاج إلى بحث وتدقيق، ودرس عميق، ومراجع ومعاجم.

أما هذه الصفحات، فليس فيها شيء من ذلك، إذ لم يكن هناك أي عزم على الكتابة، فالذي ينتقل من عمل إلى عمل، لا يفكر في القيام بعمل إضافي إبان فترة الانتقال. ولكنها الأقدار، وكان ترجمان هذه الأقدار الصديق صاحب «الدفاع». تقابلنا قبل السفر بيومين، فلما علم بخبر الرحلة، طلب إليَّ أن أكتب ما أشاهده في طريقي وأعلق عليه، فوعدته خيرا، وكتبت.

وتتناول هذه الصفحات الفترة الواقعة بين أغسطس وديسمبر من سنة ١٩٤٦، ويبحث معظمها عن الحالة والحياة في لندن خاصة، وفي إنجلترا بصورة عامة. وهي فترة عصيبة دقيقة، ولكنها عابرة، يمكننا أن نعتبرها صفحة في دور التطور والانتقال من حالة الحرب التي عرفها الناس، إلى حالة السلم التي قد يعرفها بعضهم عاجلا أم آجلا.

ومما يجدر ذكره هنا، أن كثيرا من الأخبار والمعلومات التي وصلت وتصل إلينا عن الحالة هناك مغلوط من أساسه، بينما البعض مبالغ فيه، وهناك أشياء لا صحة لها البتة. وقد يتلمس القارئ بعض التناقض

والمفارقات بين أجزاء الكتاب، وهذا أمر طبيعي لا مفر منه في فترات الانتقال من حال إلى حال، وذلك حتى يتم الانسجام التام بين ما كان وما سيكون، وتستقر الأمور على شكلها القطعي الأخير.

ثم إن هذه الصفحات لا تتناول موضوعا واحدا، بل تحتوي على مذكرات مغربلة لحوادث وحالات شاهدها الكاتب بعينه ولمسها بيده، فسجلها على حقيقتها كما رآها وفهمها، وقد كتب أكثرها على أرصفة المحطات والمرافئ، وفي القطارات وعلى سطح البواخر، وفي المقاهي والمطاعم والمنتزهات العامة، وفي كل بقعة فرضت الكتابة نفسها دون أي اعتبار للمكان أو الزمان.

وكان القصد من طلب الصديق، نشرها في «الدفاع» تباعا طبعا، وكان الوعد كذلك. ولكن عندما تجمعت بشكلها النهائي الحالي، تبين استحالة نشرها بالتقسيط، إذ ظهرت كوحدة متماسكة متسلسلة، إن أضاع القارئ قسطا. تعذر عليه متابعة الأقساط التالية، لكثرة الإشارات إلى فصول سابقة، والاستشهاد ببعض حوادثها.

والغرض من نشر هذا الكتيب الآن، ذو شقين: الأول تقديم مادة لمجرد القراءة وإملاء أوقات الفراغ في زمن كثرت أوقات الفراغ فيه لدى الكثيرين، والثاني تقديم صورة صحيحة صادقة عن فترة من الزمن عابرة في تاريخ لندن والإنكليز قد لا تستقر طويلا. وفي هذه الصورة بعض الحقائق والأرقام التي قد يستأنس بها، أو ببعضها، من يهمه الأمر. فإن ظفرت، أيها القارئ الكريم، بأحد هذين الشقين، تكون

هـذه الصفحـات قـد قامـت بقسـط مـن واجبهـا، وإلا فامـري وأمـرك للـه. وإن اكتشـف قـارئ مـا شـيئا غـير هـذا وذاك، فلـه شرف الاكتشـاف، ولي الـشرف العظيـم.

عزمي النَّشاشيبي

في المحطة

•••

قال الأقدمون: سافر، ففي الأسفار خمس فوائد. ونقول نحن المتأخرون: سافر، ففي الأسفار عشرات الفوائد، لا سيما في هذه الأيام القلقة المزعجة، الملأى بما يثير الأعصاب ويهيج النفوس، ويحمل الإنسان على أن يطفش من دنياه إلى أي ملجأ آخر في هذا الكون.

ولا يغربن عن بال أحد بأن القدس ليست بالبلد الذي يعز كثيرا على المرء فراقه في هذه الأيام. فهي على الرغم من تاريخها وجغرافيتها، لا تتدفق بالمسرات المبهجة. فقد أصبحت مدينة كئيبة، لا سيما عندما يأتي المساء حيث تغرب الحياة والحركة مع غروب الشمس. فإذا ما جال المرء في شوارع هذا البلد الطيب، أحس بعظمتها الكئيبة وهدوئها الرهيب.

وهكذا، لم تكد الفرصة تطل برأسها نحو صاحبنا، حتى غرس أصابعه في شعرها الكث، واجتذبها نحوه بقوة، وإذا به نفسه يطل برأسه من إحدى نوافذ القطار، ويلوح بيده مودعا شلة الزملاء التي حضرت إلى المحطة لتتيقن بنفسها من مغادرته. وشلة الزملاء هذه تتألف من عناصر منسجمة متناسقة، مخيفة أحيانا، طيبة دائما:

ولا عيب فيها غير أن عليها

خبيث، لعين، ناعم، متآمر

وقـد حـضر «عـليّ» هـذا إلى رصيـف المحطـة متأخـرا عـن رفاقـه، يحمـل بـين يديـه صندوقـا خشـبيا مغلقـا، قدمـه إلى صاحبنـا بانحنـاءة خفيفـة وبـكل احـترام. وتقبـل صاحبنـا الصنـدوق شـاكرا مرتابـا، وأودعـه لـدى مفتـش القطـار أمانـة لحـين الطلـب، إذ ليـس مـن الحكمـة في شيء أن يضـع المـرء في مخدعـه صندوقـا مغلقـا لا يـدري مـا فيـه في عـصر المتفجـرات الموقتـة والمقالـب المحكمـة.

وفهـم صاحبنـا مـن تلميحـات هامشـية بـأن الصنـدوق يحتـوي عـلى عنـاصر مـن الأغذيـة الضروريـة التـي ينـدر وجودهـا في بـلاد الإنكليـز. وكان هـو قـد تنبـه إلى هـذه الحقيقـة المهمـة، فقـضى العشريـن يومـا السـابقة لرحيلـه يتنـاول الزبـدة والبيـض والفواكـه فطـورا وغـذاء وعشـاء، وذلـك لاختـزان الكميـة الكافيـة مـن فيتامينـات هـذه المـواد لتقـوم بتغذيتـه طيلـة أشـهر الرحلـة.

وقـرع الجـرس، ودوى في أرجـاء المحطـة صفـير حـاد، انطلـق عـلى أثـره القطـار، ينهـب الارض ويطـوي البيـد، غـير معـرج عـلى كثبـان طـي أو تميـم.

في القطار

•••

مـن رأي صاحبنـا أن السـكك الحديديـة، بقطاراتهـا وقاطراتهـا، يجـب أن تمنـح إلى سـكان أفريقيـا وآسـيا لـكي يسـتعينوا بهـا عـلى اخـتراق الأدغـال، واتقـاء شر الوحـوش المفترسـة. أمـا أن تعتـبر مـن وسـائط النقـل الحديثـة، فـلا. فهـي لا تتوفـر فيهـا مـا يجـب مـن ميـزات وسـائط النقـل في يومنـا هـذا كالنظافـة، والراحـة، والسرعـة المطلوبـة، وغيرهـا. فالسـفر بالقطـار قـذر ومتعـب وبطـيء. ومـما يزيـد الطـين بلـة، تلـك التنقـلات والتغيـرات مـن رصيـف إلى رصيـف ومـن قطـار إلى قطـار؛ ومـا يتخلـل ذلـك مـن الانتظـار الممـل عـلى الأرصفـة وغـير الأرصفـة.

وأبشـع الأسـفار بالقطـار وأقذرهـا، هـي السـفر بـين فلسـطين ومـصر عـبر الصحـراء: رحلـة طويلـة مطـردة مملـة تسـتمر طـوال الليـل وأطـراف النهـار. ناهيـك عـن مناظـر الطبيعـة التـي تـؤذي النظـر وترهـق أعصـاب العـين. صحـراء قاحلـة جـرداء، لا عشـب فيهـا ولا مـاء، ولا حيـوان يـدب، ولا طائـر في السـماء. أمـا اللـون فأسـمر أغـبر تنقبـض منـه النفـس. وثالثـة الأثـافي مـا يتعـرض لـه المسـافر في هـذه البقعـة مـن البـرد القاتـل في الشـتاء، والحـر الخانـق في الصيـف، ورمـال قـذرة هائجـة مائجـة تهاجـم بـلا رحمـة ولا شـفقة في الموسـمين.

ويـأبى الحـظ العاثـر إلا أن يسـتقل صاحبنـا هـذا القطـار في أواسـط شـهر أغسـطس.

حيـث يشـتد الحـر وتتكاثـف الرطوبـة في طبقـات الهـواء، وهـو والرطوبـة عـدوان لـدودان. فهـو يشـكو منـذ سـنين اشـتدادا في حساسـية أعصـاب الغشـاء المخاطـي في الأنـف، تـكاد الرطوبـة تكـون لهـا سـما زعافـا.

ولـولا أن سـقط في سـبات عميـق مـن دغدغـة القطـار، لقـضى صاحبنـا ليلـة خـير منهـا الجحيـم.

في بورسعيد

•••

ثالثة مدن القطر المصري وثاني ثغورها، مدينة جميلة تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط. وصلناها صباح اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس، وقد أجمع علماء الميتيورولوجيا بأن هذا اليوم هو أحر أيام السنة. أما من حيث كثافة الرطوبة فبورسعيد منافس خطر ليافا وحيفا، ولمصوع وجدة أيضا فيما يقال.

في مثل هذا اليوم وصلنا إلى هذه المدينة وقضينا فيها سحابة النهار بجهاد مستمر غير منقطع. اختلافات ونزاع ومشاكل وملابسات مع الشركات والدوائر والعتالة والحوذية وصانع القهوة وماسح الأحذية.

أعصاب متوترة وهائجة، وجسم أضناه التعب من اهتزازات مزعجة استمرت أربع عشرة ساعة في القطار، وقد تكدست على هذا الجسم المسكين طبقات الغبار والرمال والدخان، أضف إلى ذلك كله حر خانق ورطوبة كثيفة تتسرب إلى ما تحت العظام.

في مثل هذا الجو، ومثل هذه الحالة، النفسية منها والجسدية، تذهب إلى شركة البواخر لتسلم تذكرة السفر. وبعد انتظار نصف ساعة، في الصف، يسألك الموظف المسؤول عن حاجتك. تطلب إليه التذكرة، فيجيبك بأنها لم تصلهم بعد من شركة «كوك». ولجهلك معالم المدينة، ولشدة القيظ وضيق الوقت تستأجر حنطورا ذا حصان واحد، وتقول للحوذي «كوك». عندها يدرك الحوذي بأنك «سائح» لأن كوك يقع على بضعة أمتار من الشارع نفسه. فيبتسم ويسير بك الهوينا. وبعد

أن يلف بك بعض الشوارع، يقف. فتقفز وتسأله عن الأجر، فيجيبك «ريال يا سعادة البيه!» وتلقي بنظرك عبر الشارع، فتجد نفسك على بعد بضعة أمتار من حيث الابتداء فتستعيذ بالله وتعرض عليه عشرة قروش مع العلم بأن المشوار كله لا يساوي ثلاثة قروش حسب سعر السوق. فيثور ويفور ويشخط ويتهيج استعدادا «لخناقة» طويلة للمحافظة على حقه المعرض للهضم. وهنا يحدث هياجه في نفسك رد فعل سلبيا وتأخذ في التفكير: إما أن تدفع الريال وأنف سعادة البيه راغم، أو أن تحاول إفهامه بالمحسوس فتعيقك إجراءات هذه المحاولة عن السفر، أو أنك تشكو أمرك الى «العسكري»، فيسدي إليك النصح بلطف قائلا: «ما تدفع له يا بيه الريال وبلاش دوشة دماغ، ده راجل غلبان وعنده عيال» وتعمل بالنصيحة الغالية وتدفع الريال للراجل الغلبان بدون دوشة دماغ وترجع إلى المرفأ مشيا على قدميك وصدرك في غاية الانشراح.

منذ بضع عشرة سنة وصاحبنا يسافر إلى أوروبا عن طريق هذا المرفأ وشقيقه الأكبر بالإسكندرية. ويؤلمه كثيرا بأنه لم ير شيئا من التغيير في هذا الوضع المنغص. فالمسافر ضمن هذين المرفأين تحت رحمة البحري والعتال والحوذي بكل ما في الكلمة من معان مزعجة. تدخل إلى بهو المحطات والمرافئ في لوزان أو دوفر مثلا فتجابهك لوحات كبيرة عليها التعريفة بالتفصيل عن العتالة مثلا للقطع الكبيرة والصغيرة، فتدفع ما عليك دون أي جدل أو نقاش. أما الحمالون هنا فلا بد وأن يشتد النقاش بينهم وبين كل مسافر مهما كان جنسه أو لغته. وذلك لأنهم يطالبون عادة بعشرة أضعاف ما يستحقون ويلحون في الحصول على

مـا يطلبـون بوقاحـة وإزعـاج. ولمـا كان للنـاس عقـول تبغـض الاسـتهتار، ونفـوس تنفـر مـن الاسـتخفاف، تعالـت الأصـوات واحتـدم النـزاع.

والظاهـر أن فـرض الأسـعار الجنونيـة عـلى الغربـاء ضمـن حـدود المرافـئ، مـن الأمـراض السـارية. فقـد كان يعتقـد أن ذلـك مـن اختصـاص الحوذيـة والحمالـة، وإذا بهـا تتعداهـم إلى صانعـي القهـوة وماسـحي الاحذيـة وبائعي الصحـف وغيرهـم. تكـون بانتظـار دورك لتفتيـش الحوائـج، وإذا بمخلـوق يقـترب منـك ويلـح عليـك بـأن «تعـدل دماغـك» بفنجـان قهـوة فترضـخ. وعنـد الدفـع يطلـب ‹خمسـة صـاغ». فـإذا حاولـت، بمنتهـى اللطـف، إفهامـه بـأن القهـوة في «البـول نـور» بشـارع فـؤاد الأول بالقاهـرة بقرشـين ونصـف فقـط، هـاج ومـاج واشـتد صياحـه وأخـذ يرغـي ويزيـد بعبـارات وحجـج لا تمـت إلى المنطـق والتهذيـب بقرابـة. ولكـن تجـادل مـن؟ وهكـذا يفعـل بـك ماسـح الأحذيـة وبائـع الصحـف. فـإذا سـألت الحـارس فيـما إذا كان هـؤلاء الباعـة المتجولـة يدفعـون رسـما إضافيـا للدخـول إلى سـاحة المرفـأ، أجابـك بالنفـي. إذن كيـف يصـح تدفـع ثمـن جريـدة الأهـرام قرشـا واحـدا في الشـارع، فـإذا مـا خطـوت خطـوة واحـدة وأصبحـت داخـل حـدود سـاحة المرفـأ ضوعـف الثمـن؟ والمصيبـة أنـك لا تجـد أحـدا أو ولي الأمـر والتدبـير تشـكو إليـه أمـرك لينقـذك مـن هـذا الابتـزاز العلنـي تحـت سـمع القانـون وبـصره.

وهكـذا قضينـا سـاعات لا نهايـة لهـا ونحـن ننتقـل مـن جـزء في المرفـأ إلى آخـر. فمـن الكرنتينـا، إلى الجـوازات، إلى المكـوس، حتـى تزفـت سـاعة الإبحـار. فألقيـت الحقائـب بالجملـة داخـل مواعـين كبـيرة، وقفـز المسـافرون

إلى قوارب بخارية أقلتهم إلى الباخرة التي كانت في انتظارهم على بعد بضعة أميال. وقبيل الغروب أبحرت الباخرة بسم الله مجريها، وقد وقف المسافرون على ظهرها يتمتعون بمنظر المدينة والبحر وجمال غروب الشمس. وكان منظر اتصال السويس بالبحر رائعا وقد ارتفع فوق هذه البقعة تمثال ضخم لفرديناند دي لسبس باني القنال مشيرا إلى الباخرة بيده اليمنى أن تفضلي وادخلي. وقد أنسانا جمال هذه المناظر وروعتها متاعب النهار ومنغصاته وهكذا أوينا إلى مضاجعنا نستقبل أول ليلة من رحلتنا البحرية ببهجة وانشراح.

اسكانيا

•••

وهـي الباخـرة التـي تقلنـا مـن شـمال شرقـي أفريقيـا إلى غـربي بريطانيـا، مـارة بمالطـة وجبـل طـارق والمحيـط الأطلنطـي وبحـر الشـمال. وهـي مـن بواخـر شركـة «كونـارد وايـت سـتار لايـن» وحمولتهـا ١٤ ألـف طـن. وجميـع بواخـر هـذه الشركـة مـن الدرجـة الأولى، وبينهـا الكويـن «مـاري» و «الكويـن إليزابيـث»، وحمولـة هـذه الأخـيرة ٨٥ ألـف طـن وسرعتهـا ٢٩ عقـدة في السـاعة.

كان خـط ملاحتهـا قبـل الحـرب الأخـيرة مـا بـين الجزيـرة البريطانيـة وكنـدا. ولمـا اشـتعلت نـار الحـرب، وضعـت الحكومـة يدهـا عـلى سـفن جميـع شركات الملاحـة البريطانيـة، وأدخلـت عليهـا تعديـلات وتحويـلات جمـة، وألحقتهـا بالمجهـود الحـربي، وصـارت بعـد ذلـك تعـرف بـ ناقـلات جنـود «جلالتـه» إذ تبـين أن الحـرب في مسـتهلها كانـت حـرب مواصـلات ونقـل جنـود بسرعـة ومهـارة مـن جبهـة إلى اخـرى. وكان مـن هـذه التحويـلات أن ازيلـت جميـع معـالم الراحـة والرفاهيـة التـي كان يتمتـع بهـا ركاب الدرجـة الأولى قبـل الحـرب، وأصبحـت هـذه البواخـر مرتعـا للاخشيشـان والديمقراطيـة المفروضـة. فقـد وحـدت درجـات البواخـر الأربـع المعروفـة وأصبحـت درجـة واحـدة، وأطلـق عليهـا اسـم «الدرجـة الاولى الموحـدة»، وحـدد لهـا سـعر واحـد لا يتغـير هـو أربعـون جنيهـا للراكـب بـين بورسـعيد وليفربـول.

أما النوم ففي عنابر في الطابق الرابع السفلي، وتقع تحت سطح البحر، وقد رصفت فيها عشرة أسرة صغيرة ضيقة على طريقة علب السردين مع ترك شيء من الفراغ في وسط العنبر للتحرك الذي لا بد منه. وكذلك الأكل ففي عنابر كبيرة من وعلى موائد طويلة تتسع الواحدة منها إلى عشرين مسافرا وعلى نظام المدارس الداخلية حيث قائمة الأكل وأوقات الطعام. والباخرة «جافة» لا تبيع الخمور ولا تبيح استهلاكها. ولكن فيها مقصفا يباع فيه الشاي والبسكوت والمرطبات البريئة، كما أن بها مخزنا يمكنك أن تشتري منه كثيرا من الضروريات التي يحتاج إليها المسافر في رحلة طويلة تستغرق بضعة أسابيع كلوازم التدخين والحلاقة والمساحيق وغيرها وكلها بأسعار زهيدة جدا لأنها لا تخضع لأي نوع من الضرائب.

وفي الباخرة مكتبة، وحلاق، ومستشفى، وصيدلية، وطبيب جراح، وبضع ممرضات. أما الغسيل والكوي فعليك أنت أيها المسافر العزيز أن تقوم بها على الوجه الذي تختاره وتتاح إليه. أما قليلو الحيلة الذين يعجزون عن القيام بأي عمل في هذا الوجود، فقد ظلوا في قذارتهم وظلت عليهم طيلة الرحلة.

غير أن هناك ما يخفف من عبء هذه المتاعب، لمن يعتبرها كذلك، ويحمل المسافر على أن يتقبلها بصدر رحب، بل ويرحب بها. فالشمس الساطعة بأشعتها المغذية المطهرة، وهواء البحر النقي الصافي، وهدوء البحر الشامل الذي لا يعادله هدوء في العالم، والتمتع بجميع هذه النعم السماوية ساعات طوال كل يوم طيلة أربعة عشر يوما متتالية،

بما في ذلك من تهدئة شاملة للنفوس، وإراحة كاملة للأعصاب، لاسيما لمن كان في حاجة شديدة إلى أعصابه، التمتع بهذه النعم وحده يكفي لتبرير القيام بمثل هذه الرحلة البحرية، لا على سفينة جافة موحدة، بل على «مركب خشن» والله. وأما الفوائد الصحية المتعددة التي يحصل عليها الإنسان من سفر البحر، فاسأل عنها طبيبك.

وقد أوقفت جميع أسباب التسلية والملاهي كالحفلات الليلية والسينما والموائد الخضراء وبرك السباحة وغيرها لضرورات حربية. والراديو هو المصدر الوحيد للسلوى والاتصال بالعالم الخارجي. ومن المستحدثات في هذا الباب، التعميم الشامل. فقد نصبت شبكة هائلة من مكبرات الصوت تشمل جميع أنحاء الباخرة فعلى ظهرها، وفي دهاليزها وصالوناتها وعنابر الاكل والنوم وفي كل بقعة منها قد يكون فيها انسان، تجد مكبرا للصوت يحمل اليك الاخبار اليومية والتعليقات السياسية والموسيقى. وبواسطة هذا الراديو تتصل إدارة السفينة بالركاب فتعلمهم عن ساعات الأكل وعن الرسائل البرقية الواردة، وعن حالة الطقس ووصف ما تمر عنه من جزر ومرافئ وعن مواعيد التمرينات الصباحية لكيفية استعمال الأحزمة الواقية في حالة غرق السفينة، وغير ذلك من الاتصالات والتعليمات.

وجميع هذه الامور والاجراءات هي من مخلفات الحرب، وقد بدأ القوم فعلا بالتفكير في إزالتها وإرجاع الأمور إلى شكلها الطبيعي في حالة السلم وذلك بعد مضي سنة ونصف السنة على انتهاء الحرب. وها هي «الكوين إليزابيث» إحدى بواخر هذه الشركة، قد أعيدت

إلى ما كانت عليه قبل الحرب مع إدخال تحسينات جمة ومخترعات حديثة. وقد قامت برحلتها «البكر» بشكلها الحديث خلال الأسبوع الثاني من أكتوبر إلى الولايات المتحدة وعلى ظهرها ما ينيف عن الألفي مسافر. وكان الإقبال على شراء التذاكر بشكل لم تعهده الشركة من قبل. وقد اضطرت إلى رفض آلاف الطلبات. ولهذا الإقبال أسباب معقولة جدا، فقد حملت الباخرة آخر المأكولات مما لم يتذوقه سكان الجزيرة منذ ست سنوات، كما أن عليها أنواع البضائع الحرة والشراء دون نقط أو كوبونات، وعلى ظهرها من المشروبات الروحية ما يكفي لتعويمها. وهناك ثلاث فرق موسيقية كاملة تعزف خلال حفلات المساء الراقصة وذلك بالإضافة إلى حفلات السينما والسباق والرهان وكلها من الأمور التي يتعشقها الشعب الإنكليزي وقد حرم من معظمها خلال سني الحرب ولا يزال محروما من بعضها إلى يومنا هذا.

مالطة

•••

وبعد ثلاثة أيام من استنشاق متواصل لأنقى هواء في العالم وصلنا إلى مالطة ليلا ونحن نيام، فلما استيقظنا وإذا بنا والجزيرة وجها لوجه نكاد نلمس بأصابعنا أطراف «فاليتا» العاصمة. وتشبه فاليتا مدينة يافا القديمة من البحر مع اختلاف في الوضع، إذ يرى المسافر يافا على بعد عشرات الأميال من البحر كنتوء بارز، أما فاليتا فلا يرى لها الإنسان أثرا من البحر. وكل ما تراه صخور عالية وتلال جرداء، فإذا ما اقتربت منها دخلت بك السفينة مضيقا صغيرا وإذا بك أمام حوض هائل متسع أشبه شيء بالبحيرة الصغيرة. هذا هو مرفأ فاليتا ويعد من أمنع مرافئ العالم وأبعدها منالا لمن اعتدى.

وتنتشر مئات السفن من حربية وتجارية وقوارب صيد على أطراف هذا الحوض المستدير. ومن نظرة واحدة عامة تجيلها في أطراف الحوض تدرك حالا بأن الماء واليابسة قد تمتعا بزيارات مفاجئة عديدة من طائرات العدو المغيرة.

أما المدينة نفسها فقديمة جدا من حيث التاريخ والمدنية العصرية. شوارعها ضيقة ملتوية كثيرة الغبار وأبنيتها قديمة رثة. ويظهر التهشيم في كل بقعة من أطراف العاصمة لاسيما العمارات الكبيرة ومنها سراي الحاكم من الداخل. أما من الخارج فلا يزال مدخل السراي سالما وقد نقش على جانبيه تهنئتان ساميتان إحداهما من الملك جورج السادس تتضمن منح الجزيرة الباسلة وسام صليب جورج، والثانية

مـن فرانكلـين روزفلـت يمجـد بهـا البطولـة الخارقـة التـي أبدتهـا الجزيـرة في مقاومــة غــارات العــدو إبــان الحــرب الماضيــة. والســير بالجزيــرة إلى اليسـار مثـل بريطانيـا تمامـا، أمـا أسـماء الشـوارع والسـاحات العامـة فكلهـا إنجليزيــة والإنجليزيــة هــي لغــة الحكومــة الرســمية.

وأهـل مالطـة قصـار القامـة سـمر الوجـوه يشـبهون سـكان شـواطئ البحـر المتوسـط مـن حيـث اللـون والقامـة والهيئـة العموميـة، ولا تـرى أثـرا كبـيرا للجـمال لا بـين النسـاء ولا الرجـال. ويلبـس بعـض نسـاء مالطـا المتقدمـات لباسـا تقليديـا طريفـا يشـبه الغربـال المقـوس وقـد تـدلى منـه رداء أسـود. ويرتكـز الغربـال فـوق الـرأس بشـكل فنـي يقيهـن وهـج الشـمس الـلاذع.

ويرطــن أهــل الجزيــرة بلغــة هــي خليــط مــن العربيــة والإنجليزيــة والإيطاليـة وتتغلـب عـلى القسـم العـربي منهـا اللهجـة المغربيـة. وفي فاليتـا جريــدة يوميــة، بالإنجليزيــة طبعــا، تدعــى «تيمــس أوف مالطــا» رئيــس تحريرهـا امـرأة تدعـى مايـل سـتركلند.

وتنتـشر في أرض الجزيـرة مـدن أخـرى صغـيرة أهمهـا «سـليما» وتجـاور فاليتـا ولا يفصـل بينهـما إلا جبـل صغـير. ولهـذه المدينـة الثانيـة مرفـأ مسـتقل بشـكل بحـيرة مسـتطيلة رائعـة المنظـر. ومرفـأ سـليما جـدا إلى قلـوب الغواصـات لكـثرة مـا تحتاطـه مـن الصخـور العاليـة المجوفـة ولاحتجابـه عـن عيـون العـذال.

والجزيـرة عـلى وجـه العمـوم ظريفـة وهواؤهـا جـاف لطيـف والحاجيـات فيهـا رخيصـة لضآلـة ضرائبهـا الجمركيـة، كذلـك المأكـولات لاسـيما اللحـوم والاسـماك، ويتغلـب عـلى مأكولاتهـا ومشروباتهـا العنـصران الإنكليـزي

والإيطالي. وأكثر أهليها من المسيحيين ويتغلب بينهم المذهب الكاثوليكي. وتصلح الجزيرة لقضاء إجازة أسبوعين خلال المواسم القصيرة.

وقد ابحرنا عنها في المساء فكانت كلما ابعدنا عنها قليلا تضاءلت وانكمشت حتى اصبحت تشبه صخرة صغيرة في عرض البحر، فنقطة في بحر، ثم اختفت عن العيان حتى لم نعد نستطع تحديد مكانها بالضبط، وهنا ابدى رفيق سفر بجانبي قائلا يا سلام! لقد اختفت الجزيرة تماما عن العيان، فكيف تستطيع البواخر الاهتداء اليها في هذا البحر الشاسع؟ فوافقته على ملاحظته واضفت على ذلك بان لدينا ادلة تاريخية تثبت صعوبة الاهتداء إلى هذه الجزيرة، بل واستحالته في بعض الاحيان. قال وكيف كان ذلك؟ فقصصت عليه الحكاية التالية: تمرد اهل مالطة في يوم من الايام على السلطة الحاكمة، وكانت آنذاك ممتلكات الدولة العثمانية. فلما بلغ مسامع السلطان خبر هذا العصيان أرسل أحد قواده على رأس أسطول لتأديب أهل الجزيرة وإخضاعهم. وأبحر القائد وأخذ يبحث عن هذه الجزيرة اللعينة في عرض البحار عدة أسابيع. وفي ذات صباح وردت إلى السلطان من القائد إياه البرقية التالية:

«مالطة يوق»

جبل طارق

•••

وصلت بنا الباخرة مضيق جبل طارق في اليوم السادس من مغادرتنا بورسعيد، فنكون بذلك قد قطعنا البحر الأبيض المتوسط من أقصى شرقيه إلى أقصى غربيه في ستة أيام، وكنا نسير بسرعة ٣٦٠ ميلا في اليوم. والبحر الأبيض من أجمل بحار الدنيا وأصفاها، أنيس لا وحشة فيه. أنّى توجهت بك السفينة، تستأنس بمعالم اليابسة من جزر وسهول وجبال. مياهه خلال أكثر أيام السنة هادئة، وزرقته صافية كمين الديك. وقد سرنا، بعد مالطة، طيلة يومين على محاذاة شاطئ أفريقيا الشمالي فشاهدنا مدنا عدة، وبعدها حاذينا شواطئ إسبانيا الجنوبية حتى وصلنا إلى مضيق جبل طارق.

وأخذت الباخرة تسير رويدا وتخف سرعتها تدريجيا حتى توقفت، فرست. وهرعنا إلى ظهر الباخرة، فإذا بنا أمام شبح هائل وجها لوجه. وما هي إلا دقائق حتى أشرقت الشمس فانقشعت الغيوم، وتبددت سحب الضباب، وتجلت من تحتها صخرة شامخة، هائلة، جاثمة على عنق البحر كالأسد الحذر لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وهنا يردد لسانك لا شعور يا جبل طارق، جبل طارق! وترجع بك الذكرى إلى هاتيك الأيام الغر الميامين، يوم اخترق ذلك البطل العربي طارق بن زياد القلعة الأوروبية فاكتسح إسبانيا بأجمعها وأسس فيها ملكا للعرب ازدهر خمسة قرون نشر العرب خلالها مديتهم، وأناروا السبيل إلى أبناء القارة الاوروبية الذين كانوا آنذاك يتسكعون

في دياجير الجهل والتعصب، فهرع أبناء ملوكهم وأمرائهم ونبلائهم ليرتشفوا العلم والثقافة والمدنية والفلسفة من مناهلها العذبة الصافية في معاهد العرب العلمية.

وكان دخولنا إلى مرفأ الجبل كالحلم. تصور أنك تسير في صحراء لا نهاية لها، وإذا بسور عظيم يعترض طريقك فتسير في ظله حتى يجابهك باب كبير مفتوح على مصراعيه فتلجه وإذا بك في حوش مستدير متسع وفي طرفه البعيد أكمة على أسفل سفحها بيوت عديدة متلاصقة. وهكذا تدخل إلى مرفأ جبل طارق، وهذا ما تراه عندما تدخل بك الباخرة، هذا الحصن المنيع. حوض مستدير عظيم الاتساع، انتشرت على أطرافه عشرات السفن من تجارية وحربية، ومراكب كبيرة وصغيرة للصيد والنزهة. وتربض الصخرة التاريخية العظيمة في آخر الحوض بخط مستقيم من الشرق إلى الغرب كجزيرة هائلة بعيدة عن اليابسة أميالا وفراسخ، وقد غطت أشجار الصنوبر أعلاه وأواسطه. وانتشرت بيوت المدينة، مدينة جبل طارق، على طول سفح الجبل وامتدت حتى الشاطئ الصخري، وتشبه بذلك كثيرا مدينة حيفا وخلفها جبل الكرمل. وليس لمرفأ الجبل أرصفة كبيرة، كما أن الحوض الداخلي قريب الغور. ولذلك رست بنا الباخرة على بعد كيلومترين، وأتت صغار الفلك تنقل العفش والركاب وكانوا من موظفي حكومة المضيق وعائلاتهم، وبينهم بعض التجار الهنود والإسبان.

والمعروف عن هذا الجبل أنه قطعة واحدة من الصخر الصلب، ويقال بأن داخل هذه الصخرة يكاد يكون أجوف، لا لأن السوس

نخرها فأتى على أحشائها، بل لأن يد المهندسين نقرتها فأنشئت داخلها مدينة عجيبة، وسراديب وعنابر تتسع لكميات هائلة من الأسلحة والذخائر، وأن هناك خزانات، ومطارات، وكراجات، ومعامل كثيرة لمختلف الصناعات والترميمات. وقد قيل إبان الحرب بأنه لو دخلت إسبانيا ضد الحلفاء وحوصر الجبل، استطاعت حاميته المقاومة عشر سنوات لما لديها من المؤن والذخائر ومعدات الدفاع الكاملة.

ويتضح لكل ذي عينين بأن هذا الجبل السحري هو مفتاح باب المضيق يغلق حامله به المضيق كيفما شاء دون أية صعوبة، إذ إن طرفي البر الأفريقي والأوروبي على مرمى العصا من جانبي الباخرة العابرة. أما قفا الجبل فمنحدر هائل من الأسمنت المسلح تعترضه الأقنية بكثرة قيل إنها لجمع مياه الشتاء. وقيل لأغراض أخرى والله أعلم.

ولم تكد تنتهي المعاملات الرسمية من جوازات وكرنتينا وجمرك، ويرجع موظفوها إلى قواعدهم في المرفأ، حتى تجمعت حول السفينة سوق عائمة غاية في الطرافة. فخلال بضع ثوان حاصر الباخرة أسطول من القوارب الصغيرة، تشبه كثيرا قوارب نقل الركاب في مرفأ يافا وبيروت، وعلى كل منها بحاران أحدهما يجذف والآخر يلوح بذراعيه في الهواء. ولما التصقوا بأسفل الباخرة، تطلعنا إليهم فإذا بكل قارب حانوت صغير يحتوي على أنواع السلع المنتقاة حسب الطلب، سلعة معدومة الأثر أو غالية الثمن في إنجلترا، أو خاضعة لنظام الكوتا والكوبونات. وكان بين هذه السلع ساعات سويسرية، وجوارب حريرية، وشالات إسبانية، وخمور وفواكه وروائح وحلى وغيرها. وكان التجار والبحارة

مـن سـكان مدينـة الجبـل يرطنـون بلهجـة إنجليزيـة مهشـمة. وكانـت طريقـة البيـع والـشراء أن تقـترب هـذه القـوارب حـول أوطـأ سـطح مـن سـطوح الباخـرة ينـزل إليـه المسـافرون ويتفقـدون البضاعـة عـن علـو عـشرة أمتـار عـلى الأقـل وذلـك بالعـين المجـردة، والويـل يومئـذ لقصـيري النظـر. وهنـا تبـدأ المفاصلـة حتـى يتفـق عـلى الثمـن النهـائي. ويبـدأ عـادة بثلاثـين شـلناً مثـلاً، ثـم يتدحـرج حتـى يسـتقر عـلى خمسـة شـلنات، ويتبـين أخـيراً بـأن السـلعة لا تسـاوي خمسـة قـروش.

وعنـد الاتفـاق النهـائي يقـذف التاجـر إلى الزبـون كـرة مـن الليـف المحكـم اللـف مربـوط بهـا حبـل رفيـع متـين في آخـره سـلة مـن القـش الطـري ربـط طرفهـا الثـاني بحبـل آخـر يتـدلى في القـارب ويمسـك بـه التاجـر. يسـحب الزبـون الحبـل فتصعـد إليـه السـلة فيضـع فيهـا الثمـن المتفـق عليـه ويرخـي الجبـل فتصـل السـلة إلى القـارب وبجوفهـا الدراهـم فيدخلهـا أحـد البحاريـن إلى جيبـه ويضـع مكانهـا السـلعة فيسـحبها الزبـون بالطريقـة نفسـها. وكان مشـهداً مسـلياً طريفـاً اسـتمر سـاعتين كاملتـين بيعـت خلالهـا مئـات السـلع. كان صاحبنـا يلهـو بالتفـرج عـلى هـذه الطريقـة الطريفـة إذ لم يـر مثلهـا قبـل اليـوم عـلى كـثرة أسـفاره. وكان بجانبـه رفيقـا سـفر أحدهـا مـصري والآخـر شـامي يتشـاوران عـلى شراء بعـض الأغطيـة مـن الحريـر النبـاتي مـن قـارب كان يحـوم حـول ظلهـما. وكانـت الاتصـالات التمهيديـة، وكان الأخـذ والـرد وتـم الاتفـاق عـلى أن يشـتريا أربعـة أغطيـة بسـعر خمسـة وعشريـن شـلناً للغطـاء الواحـد. فصعـدت السـلة ووضعـا بهـا الجنيهـات الخمسـة. ورجعـت السـلة إلى القـارب وكان طـرف الحبـل لا

يـزال في يـد الرفيقـين. وأخـرج أحـد البحاريـن الجنيهـات الخمسـة ودسـها في جيبـه ومـال عـلى أذن زميلـه وأسر بهـا بضـع كلـمات. وبـأسرع مـن لمـح البـصر أخـرج الثـاني مـن جيبـه سـكيناً حـادة قطـع بهـا الحبـل واندفـع القـارب نحـو الـبر كالـبرق الخاطـف وكأن بـه الشـيطان أو موتـوراً بقـوة مئـة حصـان. وذهـل الرفيقـان وأسـقط في يدهـما وأخـذا يضربـان أخماسـاً في أسـداس، ثـم أخـذا يصيحـان بمـلء صوتيهـما: «يـا خواجـات، أنتـم نـاس أوروبيـون متمدنـون مهذبـون لا يليـق بكـم أن تقدمـوا عـلى مثـل هـذا العمـل المشـين. هاتـوا بضاعتنـا أو أرجعـوا لنـا الفلـوس» وذهـب صراخهـما مـع الريـح، وذهبـت الريـح بالفلـك. وذهـب الفلـك بالخواجـات وفي جيوبهـم الفلـوس وفي سـلالهم البضاعـة، وكان ضربـاً مـن القرصنـة العلنيـة الوقحـة تحمـر منـه خجـلاً وجـوه قرصـان الصـين في القـرون الوسـطى.

ووجـم الرفيقـان والتفتـا إلى صاحبنـا فـإذا بـه في ذهـول مـما رأى لا يـدري مـا يقـول، ولم يصـدق الثلاثـة مـا رأتـه أعينهـم، ورجعـوا إلى قواعدهـم بـين مصـدق ومكـذب حتـى قـر قرارهـم عـلى أنـه مـن المسـتحيل أن يقـع مثـل هـذا العمـل الإجرامـي الوقـح بمثـل هـذا الاسـتخفاف بالنظـام والقانـون والدنيـا والديـن في رابعـة النهـار وفي أوروبـا أم المدنيـة وملجـأ الحـق والحريـة؛ ولذلـك اتفقـوا عـلى أن مـا رأوه لم يكـن إلا حلـماً نهـار ينتـج عـن تلبـكات في المعـدة مـن أكل الباخـرة.

وكانـت قاعدتهـم التـي رجعـوا إليهـا مكسـوفين عنـبر النـوم رقـم سـبعة وأربعـين. وكانـوا فيـه عـشرة، وإذا بخمسـة مـن الباقـين قـد وقـع لهـم مـا وقـع للرفـاق بالتـمام والكـمال مـع اختـلاف في القيـم. وقـد تبـين فيـما بعـد

بـأن اللعبـة نفسـها قـد لعبـت عـلى عـشرات المسـافرين مـن ركاب الباخـرة في آن واحـد، وأن القـوم هنـا اعتـادوا ارتـكاب هـذا النـوع مـن القرصنـة مـع كثـير مـن البواخـر الكبـيرة التـي ترسـو في مرفأهـم. وطريقتهـم في ذلـك أن يتظاهـروا بالأمانـة والمعاملـة المسـتقيمة عنـد افتتـاح السـوق حتـى أنهـم يرسـلون البضاعـة قبـل الثمـن ليتفقدهـا الزبـون ويسـتمرون في ذلـك حتـى قبيـل موعـد قيـام الباخـرة ببضـع دقائـق، ولديهـم التفصيـلات التامـة مقدمـا، فيقدمـون عـلى قرصنتهـم هـذه. ولا يـكاد المسـافر يتبـين مـا حـدث لـه، حتـى تكـون ثقـوب الجبـل قـد ابتلعـت القرصـان، وتكـون الباخـرة قـد خرجـت مـن المرفـأ وأصبحـت في عـرض البحـر، ولمـن تشـكو عندهـا أمـرك، وكيـف الاتصـال، وبمـن؟

فيـا أيهـا العـرب، احـذروا قرصـان المرافـئ ولا تضعـوا أموالكـم في السـلال قبـل أن تصلكـم البضاعـة وتتيقنـون قيمتهـا، وقـد أعـذر مـن أنـذر والسـلام.

الوصول

•••

وما كادت تخرج بنا الباخرة من مضيق جبل طارق حتى وجدنا أنفسنا مباشرة في عرض المحيط الأطلنطي وجهاً لوجه. ثم دارت الباخرة إلى اليمين وسارت صعداً إلى الشمال بخط يكاد يكون مستقيماً مارين بخليج بسكاي وعلى محاذاة الشاطئ الغربي البرتغالي والفرنسي. وكنا بذلك نتخطى خطوط العرض شمالاً فتؤخر ساعاتنا ثلاثين دقيقة في اليوم الواحد حتى توافقنا بتوقيت غرينتش في اليوم الرابع وأصبحنا بذلك متقدمين ساعتين عن توقيت مصر وفلسطين.

وعند ختام هذه الرحلة البحرية كنا قد تعرضنا إلى جميع حالات الطقس وتقلبات الجو، فيوم مغادرتنا بورسعيد كان الحر خانقاً والرطوبة كثيفة تفتك بالثياب وما تحت الثياب. واستمرت هذه الحالة أربعة أيام بلياليها بلغت روحنا خلالها التراق وليس لها من واق. وقد تجرد المسافرون من معظم ثيابهم حتى كأن القوم قد رجعوا إلى احتضان مذهب العراة، إذ لم يبق على الكثيرين سوى ما يستر العورة أو ما هو أقل من العورة. وما كدنا نبتعد عن شواطئ مالطة في اليوم الخامس حتى أخذت درجة الحرارة تنخفض باطراد رويداً رويداً، والرطوبة تتضاءل في الجو ثم تختفي، وتحول الطقس إلى حر خفيف في النهار وبرد ناعم في الليل حتى المضيق. واعتدل الطقس في الأطلنطي، ثم تحول إلى برد في الليل والنهار، ولم نكد نصل شواطئ بريطانيا الغربية حتى كنا قد دخلنا في منطقة المطر الغزير والبرد القارص

والعواصف الهائجة، وإذ بجميع من في الباخرة يتدثرون بالدافي من الثياب الصوفية، ويلتفون بالثقيل من المعاطف والأردية، وإذ بالنوافذ يحكم إغلاقها، ونار التدفئة يشتعل أوارها وكأننا في أواسط آذار، ذي العواصف والأمطار، ولما كانت الباخرة ترسو في الخليج كان راديو لندن ينقل إلينا خبر الطقس ويقول «تهطل الأمطار بغزارة وبدون انقطاع منذ ثماني عشرة ساعة في جميع مناطق جنوبي الجزيرة البريطانية». ومن حسنات الأسفار البحرية أن هذا التبدل المستمر في حالة الطقس خلال فترات قصيرة من الزمن ينشئ في جسم الانسان وأغشيته مناعة ضد تقلبات الجو وتهجماته.

ويختلف المحيط الاطلنعلي كثيراً عن البحر الابيض المتوسط، فهو قلق مضطرب كثير الحركة لتعرضه لمجاري الهواء والسيول المتدفقة من مناطق القطب الشمالي. وهو أحد المحيطات الخمس في هذا الكون، وتستولي فيما بينها على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تاركة الربع الأخير لليابسة. هذا ما تعلمناه في المدارس الابتدائية منذ كذا سنين، ولا أدري إن لم تكن مساحة اليابسة قد زيدت مؤخراً عن طريق التجفيف لتخفيف أزمة المسكن والمأكل. ومن يدري، فقد يخترع أحد العلماء قنبلة ما وراء الذرية تفجر في قاع البحر الابيض فتذهب بمياهه بخاراً يتناثر في سماء اللانهاية فتفرج بذلك كثير من الأزمات، وقد فكر في ذلك نفر من العلماء قبل القنبلة الذرية. وقد اشتهر هذا المحيط في التاريخ الحديث بالميثاق الذي يحمل اسمه، ويتحدثون عنه في بعض أنحاء المعمورة كما يتحدثون عن الغول والعنقاء والخل الوفي.

وصلت بنا الباخرة حوالي منتصف الليل إلى الشاطئ الغربي من إنجلترا، وتوقفت قبالة خليج ليفربول ورست تنتظر المد، فقد كان الخليج في حالة جزر يحول دون اقتراب البواخر الكبيرة من المرفأ. وفي الصباح تقدم محونا زورق بخاري صغير وربط مقدم باخرت الكبيرة بحبل وقادها نحو المرفأ الى الرصيف كما يقود الحمار الصغير قافلة من الجمال.

وهكذا وصلنا مدينة ليفربول في الربع الأخير من شهر أغسطس، شهر الصيف والشمس الساطعة والحر الشديد. ولكننا لم نر من المدينة سوى أشباح وخيالات أما المدينة نفسها فقد احتجبت وراء ستار من الغيوم الغبراء مكتنفة بالدخان الأسود القاتم والرطوبة الثقيلة. وأمام خيال المدينة، ظهرت صور وأشباح لعدد هائل من الأخشاب والحدائد والأجسام الصلبة متعانقة متشابكة تبين فيما بعد أنها عشرات الرافعات والبواخر الراسية في مرفأ المدينة.

جو قاتم كئيب، وبرد قارص، ومطر منهمر: بهذا استقبلنا ثغر الجزيرة الأول في الصيف وفي ضحى النهار. ويمكن اعتبار هذه الصورة نموذجاً للمناخ الإنكليزي معظم أيام السنة.

لندن

•••

ويعـود صاحبنـا إلى لنـدن بعـد غيـاب اضطـراري اسـتمر ثمـاني سـنوات طـوال رأت هـذه العاصمـة خـلال بعضهـا أسـوأ مـا رأتـه إبـان تاريخهـا الحافـل بالحـوادث الجسـام.

ولم يكـن صاحبنـا بالغريـب في هـذه المدينـة، فقـد قـضى فيهـا خمسـا مـن السـنين في مسـتهل ربيـع حياتـه تركـت في نفسـه أجمـل الذكريـات وأبعـد الآثـار. وكان بعدهـا يكـرر الزيـارات. عامـا بعـد عـام ليظـل عـلى اتصـال بحيـاة ألفهـا، ومدينـة عرفهـا، وثقافـة اغـترف منهـا القـدر الكثـير حتـى اضطرتـه قاهـرات الظـروف إلى التوقـف عـن هـذه الأسـفار الحوليـة بضـع سـنين تتبـع خلالهـا أخبـار هـذا البلـد العظيـم في الصحـف، والاذاعـات، والصـور، الثابـت منهـا والمتحـرك. فاطلـع، كـما اطلـع العـالم أجمـع، عـلى مـا قاسـته هـذه المدينـة الجبـارة مـن الشـدائد والأهـوال، والتخريـب والتدمـير مـن جـراء غـارات عنيفـة كانـت تمطرهـا وابـلاً مـدراراً مـن القنابـل عـلى اختـلاف أنواعهـا وأفعالهـا، غـارات لم تسـتمر يومـاً أو يومـين، أو اسـبوعاً أو أسـبوعين، بـل الأشـهر الطـوال ليـل نهـار.

وكان صاحبنـا، مـما سـمع ومـا رأى، ينتظـر أن يـرى لندنـا، أو معظمهـا عـلى الأقـل، قاعـاً صفصفـا ليـس فيـه غـير الأنقـاض المتراكمـة والأطـلال باليـة. وكان أن وصلهـا وقـد انسـلخ الهزيـع الأول مـن الليـل، فذهـب تـوم إلى فنـدق ليسـتريح مـن وعثـاء السـفر ولم يـر شـيئاً. وكان ذلـك مسـاء يـوم سـبت في الربـع الاخـير مـن شـهر آب. وأطـل مـن نافذتـه صبـاح الاحـد،

فإذا بشي من الشمس مشرقا يشع بقدر خفيف من الحرارة. لبس ثيابه على عجل مغتنماً هذه الفرصة النادرة وهرول إلى الهواء الطلق، كما هرول عشرات الألوف للتمتع بصحو الطقس، وصفاء الجو، ولقضاء سويعات ممتعة خلال عطلة الأسبوع. وقد انتقل صاحبنا من شارع إلى شارع، ومن ساحة إلى ساحة، ومن سوق إلى سوق، ومن حي إلى حي، ومن منتزه إلى منتزه حتى أدى به المطاف إلى حديقة «هايد بارك» حيث ألقى بنفسه على مقعد خشبي مريح على شاطئ بحيرة «السر بانتاين» تلك البحيرة الاصطناعية الخلابة التي جعلت من منتزه هايد بارك جنة الله في أرضه لكثرة ما احتاط بها من الرياض الغناء، وظلل جوانبها باسقات الأشجار الدانيات الأغصان، وقد انتشرت فوق سطحها مئات البط والأوز والفلك الصغيرة تحمل الأزواج المتحابة الدنقة، يجذفون بسواعد مفتولة وقلوب خافقة ونفوس مبتهجة مرحة، وقد نسوا لساعتهم هموم هذه الدنيا ومتاعبها وما فيها ومن فيها. أمام هذه الروائع. جلس صاحبنا يمتع النفس بما يشاهد، ويتأمل ما رآه قبل هنيهة إبان تطوافه، وما رأى إلا عجبا.

كان هايد بارك يعج بعشرات الألوف من الناس كعادته صبيحة كل أحد، تنحسر سماؤه عن شمس مشرقة وجو رائق. ولقد انتشر القوم فوق مروجه وبين الأشجار، وفي أحراشه وحول الأزهار، انتشار النمل في البيادر. وتكتلت كتل منهم حول منصات متحاذية نصبت في ساحة الحديقة المركزية، واعتلى كل منصة خطيب يدعو القوم إلى اعتناق أو نبذ عقيدة أو مبدأ، أو ديانة أو سياسة. فهذا يدعو إلى الاشتراكية ويحمل على الرأسمالية، وذاك يهاجم الشيوعية ويدعو إلى الاحتفاظ

بالتقاليد القديمة، وهندي يدعو إلى الاسلام، وحاخام يفسر التلمود، وفريق من منشدي جيش الخلاص يرتلون آيات الخلاص، وهذا قسيس يدعو إلى الإنجيلية، وذاك راهب يقول «بل الكثلكة خير وأبقى». منبر عام، وحرية أفكار مع صراحة في التعبير، وفي كل حلقة سؤال وجواب. وحول كل منبر نقاش وجدال. والبوليس الإنكليزي التقليدي يتجول بينهم كالبرج المتحرك، يبتسم إلى هؤلاء، ويهزأ من أولئك. وهو آمن مطمئن بأن الجميع سيعودون إلى بيوتهم كما أتوا، بعد أن يكونوا قد روحوا عن أنفسهم ونفسوا عن أحاسيسهم ومشاعرهم، ونسوا كل ما سمعوه وما قالوه.

وقد كانت حلقة العمال أكبر الحلقات، كما كان صوت خطيبهم أقوى الاصوات، ولا غرو في ذلك فظهره مسند إلى حائط رقم ١٠ داوننغ ستريت. وعلى كل فإن من المظاهر التي لا جدال في صحتها، أن الريح العمومية في هذه البلاد تهب نحو اليسار بخطى إنجليزية متثاقلة، ولكنها على كل حال اشتراكية لو رآها «لينين» لما تبينها بل لتنكر لها وحسبها «محافظة القرن العشرين».

هذا ما رآه صاحبنا في هايد بارك وهو المنتزه الرئيسي لسكان مدينة لندن، أما ما شاهده في المدينة نفسها، فكان العجب العجاب. لقد وجدها أشبه ما تكون كما تركها قبل ثماني سنوات، بل أجمل قليلاً وأكثر انتظاما. إذن أين ما فعلته المتفجرات، والمحرقات، والمقذوفات والصواريخ؟ يقيناً بأنهم لو أتوا برجل من قبائل الهوتنتوت في أواسط أفريقيا لم يسمع عن حرب القنبلة الذرية وقالوا له «لقد كانت لندن

هدفاً لأعنف الغارات الجوية في التاريخ عدة أشهر « لما صدق. أما من سمع وتقصد، فإنه يرى هنا بيتاً مشعثاً، وهناك جداراً مهدماً، وفي ناحية أخرى أرضا خالية قامت عليها فيما مضى عمارة كبيرة. وهي مشاهد ألفناها في عواصم أوروبا، لا سيما القديمة منها، حيث يهدم بناء قديم بين الفينة والفينة ويشيد مكانه آخر حديث.

والواقع أن هؤلاء الإنكليز الشياطين أعادوا بناء ما تهدم من عاصمتهم بسرعة لا يكاد يصدقها العقل، وحسنوا كثيراً من عمران المدينة بتطبيق أحدث قواعد تنظيم المدن على الأحياء القديمة ذات الشوارع الضيقة الملتوية. أما ما تهدم من الأبنية والمؤسسات الضخمة في الشوارع والساحات الكبيرة، فقد أرجعوها إلى ما كانت عليه من حيث الشكل والهندسة والموقع بحيث لا يتسنى لأي زائر أن يدرك بأن تغييراً ما قد حدث في تلك البقعة. وهذا مظهر من مظاهر تمسك القوم بالقديم من تراثهم وتقاليدهم.

وتحرك الحنين في نفس صاحبنا لرؤية جامعته حيث ارتشف من مناهلها الغزيرة العذبة قطرات طيبة من ثمرات العلم والثقافة اليانعة. فاستوقف سيارة وأعطى سائقها عنواناً معيناً وأغمض عينيه ليستعرض في مخيلته ذكريات الصبا وعهد التلمذة. ويفتح صاحبنا عينيه على صوت وقوف السيارة فلا يرى شيئاً فيقول «لقد ضللت السبيل يا صاحبي» فيجيبه السائق وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المشفق «كلا يا سيدي، هذا هو المكان، غير ان البنيان الذي عرفت قد أطارته الرياح العاتية، وشيد مكانه هذا». ونظر صاحبنا إلى هذا، فإذا به

بناء شاهق ضخم يتألف من نيف وعشرة طوابق من الحجر الأبيض الناصع، شيد على طراز هرمي وقد اختفت طبقاته العليا بين ستائر من الغيوم المنخفضة. وقد عرف صاحبنا فيما بعد بأن المنتدى العام وحده في الطابق الأرضي من بناء الجامعة الجديد هذا يتسع لألفين من أهل العلم، فتمتم لنفسه قائلاً: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»، فلولا تلك القنبلة الطائشة لما شيد هذا البناء الضخم، ولا بعد خمسين سنة. فلندن غير نيويورك، والإنكليز غير الأمريكان. هؤلاء يعتزون بكل ما هو قديم، وأولئك يفتخرون بكل ما هو حديث. والتمسك بالقديم من أسرار عظمة القوم هنا، والانجذاب نحو الحديث من أسباب نجاح خليط الأقوام هناك وسيطرتهم في عالمي الصناعة والمال.

عهد النقط والكوبونات

•••

وكما نستطيع أن ندعو عصرنا اليوم ««عصر الإذاعة والطيران»، والحرب الأخيرة بحرب الصواريخ والقنبلة الذرية، كذلك نستطيع أن شندعو العهد الحاضر في بريطانيا «عهد النقط والكوبونات»، فجميع أصناف الأكل والمواد التي يتكون منها الأكل في بريطانيا اليوم - حاشا بعض الفواكه والخضار – خاضع للتحديد والتوزيع طبق نظام الكوبونات. وقد خرجت المسألة عن كونها إجراءات فوق العادة تتخذ في حالة حرب أو طوارئ. فقد مضى على انتهاء الحرب أكثر من سنة والحالة لم تتغير، بل ازدادت سوءا في بعض الحالات وازداد الحد والتوزيع. فتحديد استهلاك الخبز لم يمض على تطبيقه شهران.

هناك سببان رئيسيان لنظام الحد والتوزيع هذا: أولهما، وهو الأهم، اقتصادي قومي، وثانيهما، وهو مهم.، إنساني عالمي.

السبب الاول: خرجت بريطانيا من الحرب الأخيرة وهي على شفا الإفلاس، إذ ليس من السهل على أية أمة - حتى على بريطانيا العظمى - أن تنفق من رأس المال القومي ستة عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية يومياً لمدة ست سنوات، وتبقى بعد ذلك محتفظة بمركز مالي متين. والإنكليز أمة تاجرة، عليها، إن أرادت البقاء، أن تستعيد مكانتها المالية قبل كل شيء. واسترداد المكانة المالية لا يأتي عن طريق الإسراف والتبذير، بل عن طريق الاقتصاد والتقتير. ومن هنا كان التوزيع والتحديد. فقد كان الفرد الواحد من المبذرين

المتعنجهين ينفق فيما مضى خمسة جنيهات بل وعشرة على الوجبة الواحدة من الأكل بما يتخلله من السوائل، أما اليوم فقد يأتي اللورد نوفيلد من معامله في أكسفورد إلى لندن ليتبرع بمليون جنيه لمؤسسات مشوهي الحرب ولكنه لا يستطيع أن يتناول من الأكل ساعة الغذاء ما تتجاوز قيمته الخمسة شلنات. ووجبة الخمسة شلنات هذه نتيجة درس علمي دقيق. فهي تحتوي على الكمية اللازمة من الفيتامينات ووحدات الحرارة للاحتفاظ بالحياة.

ومما لا ريب فيه أن الصحة العامة في بعض مدن الشرق الأوسط تحسنت خلال سني الحرب من جراء تحديد استهلاك اللحم والشحم خلال بعض أيام الاسبوع. فمن الحقائق المعروفة أن العالم أجمع كان يستهلك من الأكل أكثر مما يحتاجه لمجرد الغذاء والاحتفاظ بالحياة. أما في الشرق فمن المحقق أن أبناء أكثر مدنه يستهلكون من المواد الغذائية، لا سيما الدسمة منها، أربعة أضعاف ما تحتاج إليه أجسامهم. فيذهب الجزء القليل لتغذية هذه الأجسام والاحتفاظ بحياتها، بينما يذهب الباقي لإتلاف هذه الأجسام والقضاء على حياتها بالتدريج. وقد أثبتت الإحصاءات في بلد مثل مصر مثلاً بأن الذين يموتون فيها من التخمة أكثر من أولئك الذين يهلكون جوعاً، على شدة ما يعانيه بعض أبناء ذلك البلد الطيب من الفقر الشديد الذي أصبح الشغل الشاغل لجميع المفكرين من المصريين حكومة وصحافة وشعبا. والظاهر أن حكاية الإكثار من الأكل لا تنحصر في عنصر واحد أو قوم. فقد رأيت الناس يكثرون من الأكل في تركيا وهنغاريا واليونان

وتشكوسلوفاكيا وغيرها من بلدان أوروبا الوسطى والجنوبية. أما في رومانيا فما يلتهمه إنسان يكفي لإتخام أربعة من بني قحطان، وبنو قحطان في الرعيل الأول من الذين يعرفون كيف يأكلون.

وهكذا نجد أن تحديد كمية الاستهلاك من المواد الغذائية له فائدة كبيرة ذات شقين: الأول عام وهو الاقتصاد والتوفير وفي ذلك تنمية الثروة القومية، والثاني خاص وهو تحسين الصحة وإطالة الحياة. فمن الناس من يحجر عليهم شرعا جنونهم أو سفههم؛ وذلك للحد مما يتلفونه من الأموال على هذا السفه وذلك الجنون وبعض الناس مجانين أكل وسفهاء شرب.

أما من الوجهة الإنسانية، فالتحديد في الأكل يؤدي إلى توفير كميات من المواد الغذائية لإطعام المتضورين جوعاً من بقايا البشرية في أوروبا وغير أوروبا.

وبريطانيا تعتبر نفسها شريكة في مسؤلية إطعام هذه البقايا بوصفها إحدى الدول الثلاث المنتصرة. ومما لا ريب فيه بأن فضلات الطعام التي تلقى في المزابل تكفي إاطعام الملايين من الجياع. وقد ثبت في إحصاء أجري منذ سنوات في لندن، بأن ما يتبقى على أطراف الصحون من معجون الخردل (المستاردة) في بريطانيا وحدها تبلغ قيمته مليونين من الجنيهات الاسترلينية في السنة الواحدة. فبعملية حسابية صغيرة تتبين لك فوائد التحديد والتوفير في هذا المضمار.

وقد درس هذا النظام، نظام توزيع الأكل بالنقط والملابس بالكوبونات وما يحتاج إليه الفرد من المأكل والملبس في اليوم والسنة، درساً دقيقاً

مدهشاً. ويطبق النظام في جميع أنحاء المملكة المتحدة بدقة وشمول عجيبين.

ولا يجد القادم إلى هذه البلاد أية صعوبة في الحصول على ما يسمح له به القانون من النقط والكوبونات. تذهب غداة وصولك إلى مكتب المؤن في المنطقة التي تقطنها فتجد عشرات الموظفات يقمن بنفس العمل للتسهيل والسرعة. فتقدم جواز سفرك وما يطلب منك من المعلومات ثم ترجع بعد ساعتين فتجد جميع ما يلزمك من دفاتر النقط وأوراق الهوية قد هيئت وأرفقت بخمسة عشر كوبونا للالبسة - وهي قيمة مبدئية - يصحبها طلب معبأ لكوبونات الألبسة تذهب به توا إلى مكتب اللجنة الاقتصادية حيث تعطيك موظفة أخرى ما يسمح لك به القانون من كوبونات الألبسة حسب المدة التي ستقيمها والبلاد التي تأتي منها. فأبناء دول شمالي أوروبا مثلاً لا يستحقون كوبونات ألبسة. وهكذا تضمن لنفسك شيئاً من المأكل والملبس طيلة إقامتك بعد سويعات من وصولك.

أما نقط الأكل فمحدودة، ولكنها مربوطة بالصنف. مثلاً لا تستطيع أن تستعمل نقط الزبدة للشوكولاتة، أو نقط اللحم للصابون. فكل عنصر له نقطه الخاصة به.

أما كوبونات الألبسة فهي أيضاً محدودة من حيث الكمية، ولكنها طلقة من حيث كيفية الاستهلاك يشتري بها صاحبها ما يشاء. وقد قدرت السلطات الحد الأدنى لما يحتاجه الفرد من الكساء طيلة السنة، وخصصت لذلك العدد اللازم من الكوبونات، وهو أربعيون كوبوناً في

السنة، وعينت عدد الكوبونات لكل صنف، فللبدلة الرجالية الكاملة مثلاً ٢٦ كوبوناً، وللمعطف ١٨، وللقميص ٨ وللحذاء ٩ وللجورب واحدا ونصف وللمنديل نصفا وهكذا.

وكما يحدث في جميع أنحاء العالم من المحاولات للتحايل على القانون يحدث هنا أيضاً، ولكن - والحق يقال. بصورة محدودة بالنسبة إلى سائر البلدان المتمدنة. فقد ابتاع رجل دفتر نقط من امرأة، فحوكم الشخصان وعوقبا عقاباً صارماً. وقليلاً ما يحدث ذلك. أما كوبونات الألبسة فلها سوق سوداء - أيضاً محدودة - وقد تراوح ثمن الكوبون الواحد بين شلنين ونصف وثلاثة شلنات في هذه السوق.

ويشعر بتحديد المواد الغذائية صاحب البيت أكثر مما يشعر به الزائر. فالمطاعم العامة تحصل على بعض حاجاتها من المواد الغذائية غير أن طريقة تقديمها للزبون مقيد بنظام خاص. مثلا: يجب أن تتألف الوجبة الواحدة من حساء ولحم أو سمك مع بطاطس وخضرة، وحلوى على ألا يتجاوز سعر الوجبة الخمسة شلنات. ولا يجوز للمستهلك أن يطلب شكلين كبيرين، بل عليه أن يتقيد بتوزيع الأصناف. هذا بدون خبز طبعاً. أما إذا أراد أن يأكل مع طعامه خبزا، فعليه أن يحرم نفسه من أحد الصنفين الخفيفين - الحساء أو الحلوى – إذ عند ذلك يحسب الخبز صنفاً مستقلاً في القائمة.

ويطبق هذا الترتيب في جميع المطاعم الإنكليزية بكل نظام ودقة وبدون استثناء. فصاحب المطعم الإنكليزي لا يمكن أن يعطيك قطعة خبز صغيرة لا يسمح بها النظام، ولا أن يستوفي منك ملاً واحداً أكثر من

خمسة شلنات، غير أن هناك عشرات بل مئات المطاعم غير الإنكليزية في لندن، من أوروبية وآسيوية وغيرها. فهناك المطاعم الروسية، والبولونية، والفرنسية، والإيطالية، والهنغارية. والصينية، والهندية وغيرها وغيرها بكثرة هائلة. ولأصحاب بعض هذه المطاعم نظارة في تفسير بعض مواد أنظمة الاكل قد تختلف عن وجهة نظر الإنكليز. فمنهم من يعتقد بأن القوانين والأنظمة قد وضعت للتيسير لا للتعسير، ولذلك تراهم لا يتقيدون كثيراً بحرفية هذه القوانين والأنظمة. فإذا أضفنا إلى سعة الصدر هذه في تفسير القانون الحقيقة الخالدة وهي أن أكل الإنكليز على العموم لا طعم له، وأن أكل الأمم المذكورة آنفاً يستهوي النفوس، أدركنا السبب في كثرة الإقبال الهائلة على المطاعم غير الإنكليزية في لندن لا سيما تلك التي في حي السوهو وهو الحي الذي تكثر فيه الطوائف الغريبة من أوروبية وآسيوية يعرف عنه الكثير كل من في صباه قرأ الروايات البوليسية، من طراز جون سنكار وشرلوك هولمز، والتي تكثر فيها الجرائم الليلية والطرق الملتوية في إنجاز المعاملات على اختلاف أنواعها.

التوفير الإجباري

•••

ذكرنا فيما تقدم بأن الغاية الرئيسية التي يتوخاها الإنكليز اليوم، هي استعادة مكانتهم المالية والاحتفاظ بأسواقهم العالمية. وهم لذلك يوجهون جميع جهودهم إلى هذا الهدف ويسلطونها عليه. وفي سبيل ذلك يحرمون أنفسهم كأمة من بعض ضروريات الحياة وكثيراً من كمالياتها وذلك بالتوفير القومي العام الشامل. وفي بلوغ غايتها هذه، تلجأ الحكومة إلى طرق ثلاث، هي:

أولا - التشويق. فأينما سرت وأنى ذهبت ترى الإعلانات واللوحات على اختلاف أحجامها وأنواعها منتشرة على واجهات الأبنية الكبيرة، وداخل السيارات العمومية والقطارات والمقاهي والملاهي وفي كل مكان يمكن أن يوضع فيها إعلان وكلها ملأى بعبارات التشويق للتوفير، عبارات لا ينقصها الحافز على التحمس لتنفيذ رغبة الحكومة التي هي الأمة بنفسها. فعقيدة الإنكليزي، وهو في ذلك على حق، أنه هو الحكومة، ولكن تسهيلاً لتصريف الأمور والأعمال، ينتدب إلى دوائرها من الأفراد من يقوم بتنفيذ رغباته وإرادته. ومن هذه الأفراد تتكون هيئة حكومته. فإذا ما طلبت إليه هذه الهيئة أن يقوم بعمل معين، قام به في الحال؛ لاعتقاده الجازم بأن ذلك في صميم مصلحته.

ثانياً - تحديد الاستهلاك الفردي. وقد أسهبنا في تفصيل ذلك عند البحث عن نظام النقط والكوبونات حيث حدد إصدارها وتوزيعها بنظام صارم. وقد يخطئ من يظن بأن في استطاعة الإنكليزي أن يشتري ما

تصبو إليه نفسه من الأشياء التي لا تتقيد بنظام النقط والكوبونات، فهذه أيضاً التجأت الحكومة إلى تقييدها في حملتها التوفيرية بنظام تحديد البيع المحلي.

وتحديد البيع المحلي هي الوسيلة الثالثة التي تلجأ إليها الحكومة في حملتها التوفيرية قابلت عشرات من أصحاب اليسار من الإنكليز الذين يودون أن يشتروا سيارة، ولكنهم لا يستطيعون مع أن المصانع في بلادهم تقذف المئات منها كل يوم وتعرض آخر نماذجها في واجهات المخازن بكثرة. وكل ما يستطيع أن يتمتع به الإنكليزي هو النظر إليها من وراء حجاب زجاجي. أما السيارات نفسها فللشحن والتصدير. تعمل المصانع الإنكليزية ليل نهار - فتنتج السيارات، والآلات الميكانيكية، والمنسوجات، والروائح العطرية، والأحذية والاسلحة وغيرها، ولكن القسم الأعظم منها للشحن. وغايتهم في هذا كله، إصدار أكبر كمية ممكنة من منتجاتهم إلى الخارج، وإدخال أكبر كمية ممكنة من النقد الأجنبي إلى بلادهم لتدعيم ماليتهم.

أما ما يستهلك من هذه المصنوعات البريطانية محلياً، فمحدد بنظام الكوتا، وهي الكمية المحدودة أو العدد المحدود من كل سلعة حتى ما يتقيد منها بنظام النقط والكوبونات. والتحديد هنا على البائع لا على الشاري. وقد عينت السلطات المسؤولة الكميات اليومية أو الشهرية أو السنوية التي يستطيع البائع التصرف بها. وكثيراً ما تغلق الحوانيت أبوابها حول الحادية عشرة صباحاً بعد أن يترك أصحابها على أبوابها عبارة نأسف فقد نفذت الكمية التي تسمح لنا بها الكوتا

اليـوم. وكثـير مـا تـرى عـلى واجهـات المخـازن عبـارة «هـذه نمـاذج وليسـت للبيـع». وهـي هنـاك للمسـتوردين مـن التجـار الأجانـب. وقصـد الحكومـة مـن هـذا كلـه عـدم تشـجيع أفـراد الأمـة عـلى الـصرف والـشراء لتوفـير النقـد واسـتغلاله في الإنتـاج القومـي. ولذلـك فقـد فرضـت الحكومـة حتـى عـلى هـذه الكميـات المحـدودة ضرائـب باهظـة تدعـى «ضريبـة الـشراء المحـلي» وتتجـاوز هـذه الضريبـة في حـالات كثـيرة، لا سـيما الكماليـات مئـة في المئـة، ومـن أراد الـشراء فليتفضـل.

الاشتراكية الاجتماعية

•••

الاشـتراكية السياسـية في بريطانيـا مـن الامـور المشـكوك بصحتهـا، وقـد كانـت ولا تـزال موضـوع جـدل ونقـاش عـلى كل حـال، لا سـيما في الاوسـاط العريقـة بالاشـتراكية كروسـيا مثـلاً. فبعضهـم ينظـر اليهـا «كمحافظـة» مقنعـة، بينـما البعـض الآخـر يعتبرهـا «المحافظـة» بعينهـا وأذنهـا لا يتغـير فيهـا غـير الاشـخاص والهيئـات التـي تتـولى الحكـم.

أمـا الاشـتراكية الاقتصاديـة فيتـولى السـهر عـلى تنفيذهـا عنـاصر متعـددة منهـا الضرائـب الباهظـة كضريبـة الأيلولـة، وضريبـة الكماليـات، وضريبـة الدخـل المتصاعـدة وغيرهـا، ومنهـا المحـاولات الجديـة، وقـد تحقـق بعضهـا، لتحويـل الصناعـات الكـبرى مـن ملكيـة الفـرد أو الشركـة إلى ملكيـة الأمـة كصناعـات الحديـد، والمصـارف، وصناعـات السـفن وغيرهـا، ومنهـا تحديـد وتوزيـع الضروريـات بالعـدل والقسـطاس عـلى جميـع أفـراد الأمـة مـن حيـث النـوع والكميـة. أمـا الظاهـرة التـي لا ريـب في تغلغـل بوادرهـا بـين جميـع الطبقـات، فهـي الاشـتراكية الاجتماعيـة. ويـدرك زائـر إنجلـترا بعـد الحـرب هـذه الظاهـرة في بضعـة أيـام، إن كان ممـن عرفـوا البـلاد وأهليهـا جيـداً قبـل الحـرب.

ولهـذه الظاهـرة التـي تـكاد تشـبه الانقـلاب، أسـباب عديـدة منهـا مـا هـو اقتصـادي ومنهـا مـا هـو سـيكولوجي. ومـما لا جدال فيـه أن للحـرب الماضية ومـا تركتـه وراءهـا مـن المخلفـات تأثـيرا كبـيرا في إنضـاج هـذه الظاهـرة إن لم تكـن مسـؤولة عـن خلقهـا مبـاشرة. أمـا إذا كانـت هـذه الظاهـرة نتيجـة

تطـور طبيعـي في حيـاة الأمـة الإنكليزيـة ستسـتمر وتبقـى، أو أنهـا عـرض زائـل سـيتبخر ويتـلاشى في الوقـت المناسـب، فامـر سـتثبته لنـا الأيـام بعـد رجـوع الأمـور إلى حالتهـا الطبيعيـة مـن أنظمـة طـوارئ وضرائـب إضافيـة وغيرهـا. ومـن صـور هـذه الظاهـرة، اختفـاء معـالم الأرسـتقراطية في الملبـس والمظهـر. فلـم تعـد تـرى تلـك السـيارات الليموزيـن الفخمـة مـن طـراز الرولـز رويـس والسبانوسـويزا تلمـع داخلهـا القبعـات الحريريـة العاليـة وتتـلألأ الجواهـر الثمينـة. لقـد اختفـت القيمـة الأسـطوانية والبونجـور والمونـوكل، ولم تعـد تـرى في الأسـواق والمنتزهـات والسـباقات إلا رجـالاً يلبسـون مثـل سـائر مخلوقـات اللـه لا تمييـز بـين اللـورد منهـم وكاتـب الصحيـة وبائـع الدخـان والحـلاق. فقـد تسـاوى النـاس في المـأكل والملبـس، حتـى في ركـوب البـاص وقطـارات تحـت الأرض.

وصلنـا ليفربـول عـلى ظهـر باخـرة كبـيرة، وكنـا خمسـمئة وأربعـين مسـافراً مـن مختلـف الطبقـات. وكان علينـا أن نسـافر إلى لنـدن بالقطـار والمسـافة سـت سـاعات. قطعنـا تذاكـر القطـار عـلى ظهـر الباخـرة سـاعة رسـوها. فلـم يسـألنا قاطـع التذاكـر عـن الدرجـة التـي يريـد السـفر بهـا كل منـا، بـل ذكـر لنـا سـعر التذكـرة وناولنـا إياهـا فنظرنـا إليهـا وإذا بهـا كلهـا درجـة ثالثـة.

ومـن صـور هـذه الظاهـرة، المـرأة ومـا دخـل مـن التطـور عـلى لباسـها وحياتهـا. لأول مـرة في تاريـخ لنـدن تلبـس المـرأة البنطلـون وتمـشي في الأسـواق. وهـذه بدعـة لم يكـن يطـاق رؤيتهـا قبـل الحـرب في عاصمـة بريطانيـا العظمـى أو غيرهـا مـن المـدن الكـبرى المحافظـة. إذ لم يكـن

يسمح بها إلا في المدن الساحلية وعلى الشواطئ فقط، وتقوم المرأة بأعمال لم يسبق أن اشتركت فيها قبل الحرب. فتراها بائعة تذاكر في السيارات العمومية وغيرها من وسائط النقل، وموظفة في شتى الدوائر الحكومية، وعاملة على الطرق، سائقة سيارات، في البواخر، في محطات السكك الحديدية وفي المزارع وغيرها.

ومن مظاهر هذه الاشتراكية الاجتماعية اختفاء الحفلات البيتية الكثيرة، والضروري منها يقام في الفنادق بأسعارها المحدودة. وهكذا كفى القوم القانون شر البذخ والتبذير في حفلات كانت تظل حديث الأوساط الراقية ردحاً من الزمن.

الإنكليز والأخلاق

•••

لم يفقد الإنكليز شيئاً من مميزاتهم الخلقية على كثرة ما عانوه (ولا يزالون يعانون بعضه) من أهوال الحرب وشدائدها، وفتك الغارات وبطشها، وما تكبدوه من الخسائر الجسيمة في الأرواح والممتلكات داخل بلادهم وخارجها، خسائر كادت تودي بهم إلى شفا الإفلاس، ومن شأن التعرض للشدائد والأهوال وجسيم الخسائر في الأموال، إحداث خلل في التوازن العقلي وهزة عنيفة في المزاج النفسي تودي بصاحبها إلى تطورات في الخلق والتفكير لا يغبط عليهما.

وليس الأمر هنا كذلك على الرغم مما يلاحظه المرء في بعضهم شيئاً من فقدان الأعصاب، ولا غرابة في ذلك، فليس من هاجمه الموت ونجا كمن تعرض له وقضى.

وليس من الحكمة والإنصاف في شيء أن يحكم المرء على الإنكليز خارج بلادهم. فمن كان منهم خارج الجزيرة، لا يتمكن أحياناً من إظهار خلقه الحقيقي، كما أن خلقه أحياناً أخرى يتكيف ويتطور وذلك حسب الأوضاع والظروف. فهو خارج بلاده ليس «ابن بلد». إنه إما سائح أو حاكم، أو عالم، أو رحالة. أما الإنكليزي «ابن البلد» الحقيقي، فهو هنا، في عاصمة بلاده، وفي أحيائها المجاورة المتواضعة، ذات الأزقة الضيقة الملتوية المظلمة، وفي حاناتها الصغيرة الغاصة، في مدنها الريفية الكبرى وفي قراها، في جبالها وشواطئها، في مناجمها تحت الأرض، وفي

بواخرها على سطح البحار. الأول له صبغة أممية ووضع خاص، أما الثاني فهو «إنكليزي» وبس.

وتتعرف إلى هذا الإنكليزي «ابن البلد» حالاً عندما تلتقي به بعد طول الغياب فتجده لا يزال هاوياً للرياضة على ضروبها مغرماً بالسباقات وبالرهان في السباقات على اختلاف أنواعها لدرجة الجنون، فإذا ما اشترى جريدته الصباحية أو المسائية، أشاح بوجهه عن جميع أخبار العالم الرئيسية، وكلها اليوم هامة مقلقة وقفز رأساً بعينيه إلى العمودين الأخيرين من الصفحة الرابعة، ليتتبع نتائج سباقات الخيل والكلاب والدراجات النارية واليخوت والمراكب الشراعية وغيرها وغيرها. وهو لا يزال دنفا بالسفر وحب الانتقال، لا سيما لا خارج بلاده.

يأخذ بالتفكير الجدي عند مستهل كانون الثاني في المكان والكيفية اللذين سيقضي بهما إجازته السنوية خلال شهر أيلول مثلاً ويقوم بتهيئة الترتيبات اللازمة خلال هذه الأشهر التسعة. كان لدى صاحبنا بضعة عشر يوماً يتصرف بها دون عمل، فأراد قضاءها في السويد، فقيل له إن وسائط النقل محجوزة لثلاثة أشهر فولى وجهه نحو الدانمارك، فقيل له انتظر شهراً واحداً، فالتفت غرباً وقال أيرلندا، فأُخبِر بأن وسائط السفر متيسرة غير أن الفنادق محجوزة لثلاثة أسابيع على الأقل، فيئس وأقلع.

ومن أسباب هذا التهافت على السفر، رغبة الإنكليز الشديدة في التعويض عما ينقصهم من بعض عناصر الغذاء الرئيسية كالزبدة

والجبن والبيض واللحوم والطيور والفواكه، والبلاد الثلاثة المذكورة آنفاً، بلاد خير وبركات، والاستهلاك فيها حر من كل قيد.

وكما ذكرت في بعض الفصول السابقة، فقد وضعت السلطات حداً أعلى للكمية التي يمكن للمسافر استهلاكها من المال حتى خارج بلاده، وهي خمسة وسبعون جنيها فقط في السفرة الواحدة. وهذه لا تكفي لشيء في هذه الأيام التي بلغت بها أسعار الحاجيات والفنادق حداً جنونياً، ولذلك فقد التجأ البعض، والحاجة أم الاختراع، إلى طريقة التضايف لتحاشي إنفاق القيمة المصرح بها على المأكل والمبيت. والطريقة طريفة وعملية، وهي أن يتراسل شخصان، أحدهما في إنجلترا والآخر في سويسرا مثلاً، دون أن يعرف أحدهما الآخر وذلك عن طريق بعض المعاهد والمجلات، فيستضيف كل منهما الآخر في بلده وبيته مدة ثلاثة أسابيع لا يتكلف خلالها الضيف شيئاً على الأكل والنوم، وهكذا يتسنى له شراء ما يحتاج إليه من الحاجيات التي لا يجدها في بلده. وقد انتشرت هذه الطريقة حتى بين الفتيات الصغيرات لا سيما بين باريس ولندن.

وإذا ما تحدثت إلى ابن البلد الإنكليزي هذا، ألفيته لا يزال طيب القلب إلى درجة السذاجة، دمث الأخلاق أميناً مؤتمنا كبير الثقة بنفسه وبغيره، لا يفهم السياسة ولا يريد أن يفهمها - ففي اعتقاده أن بضعة الرجال في «دوننغ ستريت» و«وايتهول» هم وحدهم الذين لهم حق تعاطي أمور السياسة والتحدث بها - يقرأ كثيراً قراءات عرضية لا يحتفظ بالكثير من محتوياتها لأن أكثرها من نوع القصص الصغيرة

الخفيفة والروايات البوليسية. يعيش عيشة هادئة رزينة، يلهو ويلعب ويطرب كذلك بهدوء ورزانة وبدون صخب أو ضجة، ولكنه ما يزال يعرف كيف يشرب، هذا هو الإنكليزي في بلده وجدته كما كان دون زيادة أو نقصان.

المحتلون

•••

شغلت صحف لندن الكبرى، الصباحية منها والمسائية، صفحاتها الأولى وبعناوين ضخمة على أعمدة أربعة طيلة شهر كامل، بحادث تجابهه عاصمة الإمبراطورية لأول مرة في تاريخها الطويل الحافل بالجسام من الأحداث. وقد اهتمت به دوائر البوليس والنيابة العامة والقضاء وانتهى بأن عقدت من أجله الوزارة بأكملها عدة اجتماعات لتحدد موقفها وسياستها من هذا الحادث المتناهي في الغرابة والشذوذ.

وتفصيل الخبر أن بعض العائلات المرصوصة في مآويها من قاطني الأحياء المجاورة الفقيرة ضاقت ذرعا بأزمة المساكن الناشئة عن الغارات والبولونيين وغيرها من مفاجئات الدهر، فاحتلت فجأة ثكنة عسكرية أخلتها وحدة سرحت حديثا. ولم يكتف المغتصبون بهذا الاحتلال، وكان عنوة، بل أخذوا يطالبون السلطات بالماء والكهرباء، والمنشآت الصحية. وبينما السلطات تدرس وتبحث في مشروعية هذا الاحتلال الغريب، الذي لم يسبق لها أن ووجهت بمثله، انتبه له بعض الخبثاء من الشيوعيين فأخذوا يحيكون المؤامرات وينظمون التشكيلات في الخفاء. وتنهض لندن ذات صباح من سباتها العميق، فإذا بجيوش من هؤلاء المستوطنين المغتصبين قد احتلوا عشرات من الفنادق الخالية والعمارات الكبيرة ونقلوا إليها أمتعتهم وأثاثهم، وذلك بحجة أن بعضهم لا سكن له بينما مساكن البعض الآخر لا يصلح لسكنى الحيوان بله الإنسان أخاه الصغير.

وهنا ضج الكون البريطاني، وقامت دنيا لندن وقعدت، وأخذت صحف المحافظين والاحرار تصيح وتولول وترسل الدمع السخين مدرارا على القانون القتيل وحقوق الملكية الصريعة، كما أخذت تتنبأ بأن هذا الحادث سيؤدي إلى انهيار النظام الاجتماعي الحاضر. أما صحف العمال فأخذت تحرض الحكومة على منظمي هذا الزحف وتطلب إليها اتخاذ إجراءات سريعة لإيقافه عند حده، وللضرب على أيدي منظميه لأن الغرض منه إسقاط الحكومة لا مساعدة البائسين.

وكانت الحكومة قد وضعت يدها على هذه العمارات إبان الحرب لاستعمالها في أغراضه، ثم أخلتها حديثا لتسلمها إلى أصحابها الشرعيين. وشرع أصحابها في اتخاذ الاستعدادات لإصلاحها وترميمها كي ترجع صالحة للاستعمال كفنادق ومنازل، ولكن جيوش المستوطنين المغتصبين احتلتها قبل أن يصل إليها عمال الإصلاح والترميم.

واتسع نطاق الحركة وكاد أن يودي إلى عواقب وخيمة. وهنا تحركت الحكومة وأخذت في إرسال رجالها من البوليس للمحافظة على ما لم يكتشفه المحتلون من العمارات الخالية. وكانت الخطوة الرسمية الثانية أن حاصر البوليس العمارات المحتلة لمنع الدخول والخروج، فأخذ الأنصار وذوو الأغراض إلقاء رزم الزاد إلى النوافذ. ثم أمر وزير الصحة بقطع الماء والكهرباء عن البيوت، فأرسل لهم الأنصار قساطل الماء ورزم الشموع. وهنا هرشت رؤوس القضاء وأوحت بما كشف لها عنه هذا الهرش إلى الحكومة التي قررت على أثره أن تبلغ المستوطنين إنذارات خطية تمهلهم بها كذا أياما يخرجون خلالها وإلا

فستقدم المتلكئين منهم إلى القضاء بتهم جزائية وحقوقية للاعتداء على ممتلكات الغير والاستيلاء عليها عنوة واغتصابا.

وهنا هاج المغتصبون وماجوا، وأرسلوا الوفود إلى رئيس الوزارة والاسترحامات إلى مليك البلاد، قائلين بأنه لا يجوز إرجاع هذه الممتلكات إلى أصحابها ليصلحوا من شأنها ويؤجروها بإجارات باهظة إلى قوم أغنياء، وهم لا مأوى لهم. وما على الحكومة إلا أن تضع يدها على هذه العمارات وتقدمها لهم، أي للمغتصبين، ثم تعوض على أصحابها بما تيسر.

وقد انقضى شهر كامل على هذا الحادث الطريف وصياح المغتصبين يملأ الدنيا ويشغل الناس. وقد أصبحت حكايتهم موضوع تنكيت وتفكهة. فقد نشرت «الديلي اكسبرس» صورة كاريكاتورية لجماعة طاروا إلى القمر فما كادوا يهبطون أرضه حتى لفت نظرهم بوليس قمري بحدة إلى لوحة رسمية عليها إعلان بتوقيع حاكم الديار القمرية يحظر به على المستوطنين الغاصبين دخول بلاده. كما نشرت «الإيفننغ نيوز» صورة كاريكاتورية أخرى لناسك هندي يجلس القرفصاء على لوحة مربعة رصعت بالمسامير الناتئة صعدا، فيسأله صديق «لقد طال بك الجلوس يا صاح، فما يبقيك حتى الآن؟» فينظر إليه الناسك بدهشة واستغراب ويقول: «كيف أغادر مقعدي يا هذا، والمغتصبون في كل حي!».

الدعاية الصامتة

•••

ليس من شأن صاحب هذه الصفحات أن يتحرش بالسياسة، فهو يعرف تماما أنه ما دخلت السياسة شيئا إلا أفسدته، ولذلك فقد اتخذ قرارا بينه وبين نفسه بالإجماع، بأنه لن يدع مجالا لسوس هذه السياسة بأن يتسرب إلى صفحاته فيعمل فيها نخرا ويذرها حطاما بالية، ولذلك فهو إن تكلم عن الدعاية فإنما يقصدها، بأوسع معانيها، ومن النوع الإيجابي الجزيل الفائدة والبعيد الأثر. وليست الدعاية محصورة في اتجاه واحد أو موضوع، فهناك الدعاية للعلم والادب، وهناك الدعاية للصحة والاخلاق، وهناك الدعاية للرياضة والسياحة، وهلم جرا ودواليك.

ففي لندن اليوم رهط من السيدات العربيات هن من أفضل ما عرفت في جميع الأقطار، بعضهن من عقيلات رجال الهيئات السياسية العربية والبعض الآخر من عقيلات رجال المكتب العربي. ويقوم هذا الرهط النسوي بأجمل وأوسع الدعايات وأبلغها أثرا في النفوس دون أن يتقصدنها أو ينبسن ببنت شفه فيها. تراهن في شتى المجتمعات من عمومية وخصوصية، ورسمية وغير رسمية، فتحسبهن من صميم أرقى الطبقات الاجتماعية والأرستقراطية، وإنهن لكذلك! فإن تحدثن فبعقل واتزان، وإن استقبلن فبلطف وإيناس، وإن لبسن فبحشمة وأناقة، ذكيات العقل والقلب، مثقفات متمكنات من دقائق الإيتيكيت والبروتوكول الاجتماعي الحديث المتبع بين طبقات النبلاء والعظماء في لندن وفي

غير لندن تمكنا عجيبا. وهن، بالنظر إلى أوضاع بعولتهن، يدعون إلى أعظم الاجتماعات ويختلطن بأرقى الأوساط وبمجرد وجودهن في هذه الأوساط والامتزاج بعناصرها يقمن بأجمل وأوسع دعاية هادئة صامتة مثمرة للعرب والعروبة.

وهذه الدعاية الصامتة لسيداتنا الفضليات، ذات شقين: سلبي وايجابي.

أما السلبي فالقضاء على تلك الصورة السخيفة المغلوطة التي لا تزال عالقة في رؤوس الكثيرين من أهل الغرب عن العرب والعروبة، إذ لا يزال هؤلاء الكثيرون يتخيلون العرب كقوم إبل وإماء وجلابيب فضفاضة، قوم يحتفظ شيوخهم بعشرات النساء في القباء، بينما يمتطي شبابهم صهوة خيولهم يجوبون بها آفاق الصحاري والتلال حتى يلتقى أحدهم بسائحة أمريكية حسناء تاهت عن القافلة، فيختطفها ويقفل بها إلى خيمته. ويحيك مختلقو هذه الصور حول مثل هذا الحادث من نسيج الخيال قصصا غرامية مثيرة، وما مختلقو هذه الصور إلا التجار من الكتاب القصصيين والسينمائيين، وما قصدهم من ذلك إلا إثارة الخيال الرومانتيكي في نفوس العذارى من هواة القصص ورواد السينما استدرارا للدرهم والدينار.

وقد رأينا منذ سنوات كتبا وأفلاما مثل «عائشة» و«الشيخ» و «ابن الشيخ» لو رآها صبي الشارع لسخر منها أو حسبها عن قوم يقطنون بلاد واق الواق. وهؤلاء التجار من الكتاب يدركون تماما بأنهم يكذبون ويختلقون، وأن ما يصورونه بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع، ولكن ما العمل وهم طلاب مال لا طلاب حقائق وأدب.

تصور كاتبا تاجرا من هذا الطراز يدخل بيتا عربيا فيرى في صالونه أثاثا فاخرا من الطراز العربي الجميل، أو من طراز لويس الخامس عشر مثلا، وقد نسق أجمل تنسيق وفي صدر القاعة بيانو هوفماز أو بخشتاين جلست إليه فتاة البيت تعزف ألحانا رائعة من بيتهوفن أو من شوبان. ثم ينتقل إلى قاعة الأكل وإذا بالصيني والكريستال وإذا بالمائدة العصرية الفاخرة يتناول منها أكلا شهيا فيه طعم ولذة. ثم يجيل بطرفه في المكتبة فيقع نظره على «أصل الانواع» لداروين، وعلى «النسبية» لأينشتاين، وعلى «الرأسمالية» لكارل ماركس، وعلى مؤلفات برنارد شو وغوته وفولتير وغيرهم. ويجلس للتحدث إلى أحد أفراد العائلة فيناقشه بأحدث ما وصلت إليه الأبحاث العلمية في موضوع الطاقة الذرية والجوهر الفرد. هذه كلها حقائق، ولكن لا قيمة لها البتة في نظر هذا الكاتب التاجر فهي ما تعود أن يراه أبناء بلاده في أحسن بيوتاتهم وهو يبغي الإثارة، وهذه صور ومشاهد قد تثير اهتماما في نفوس علماء الاجتماع وأساتذة التاريخ، ولكنها لا تثير أية عاطفة في نفس الجماهير حتى بنات المدارس، لا في كتبه ولا في رواياته السينمائية الرخيصة، إذن: «إلى الصحراء وإلى الخيال، حيث الإثارة وحيث المال».

هذا هو الشق السلبي من الدعاية الصامتة التي تقوم بها سيداتنا، وبه يمحون تلك الصور السخيفة المغلوطة من رؤوس الكثيرين من أبناء الغرب، فتبقى تلك الرؤوس فارغة، وعندها يتساءل أصحابها، أصحاب الرؤوس الفارغة من الصور «إذن من هم العرب؟» وهنا تتجلى

شخصية معنوية من بين هؤلاء السيدات شخصية تمثلهن جميعا تقول نحن العرب، انظر وتأمل! فينظر ويتأمل فإذا به يرى علما وأدبا، وثقافة ومدنية، وأنوثة فاضلة كاملة تكشف عن رقة واحتشام وهيبة ووقار، فيذهل، ثم يحني رأسه احتراما ويتمتم لنفسه قائلا: إن أمة تخرج مثل هذه العناصر الطيبة، عناصر تفوق الكثير مما لدينا علما ومعرفة ودماثة أخلاق وحسن تصرف الجديرة بأن تتمتع بجميع ما وهبها الله من الحقوق الطبيعية كاملة غير منقوصة. وفي هذا الدعاية المثمرة ما تتضاءل دونه الملايين من الخطب والمقالات والروايات من السينمائية وما إليها.

وهذا هو الشق الإيجابي من الدعاية الصامتة التي تقوم به سيداتنا في المجتمعات دون أن يقصدنها أو يشعرن بها إذ لا تتحدث سيدة من سيداتنا أولاء إلى شخص أجنبي كبير في الأوساط الراقية أو المجتمعات الرسمية أو في بيتها الهادي إلا وتترك في نفسه هذا الأثر البليغ وترسم في رأسه صورة دقيقة ثابتة عن العرب والعروبة، وما وصلوا إليه وما يمكنهم أن يصلوا اليه، فترسخ هذه الصورة الحقيقية في رأس صاحبها بعد أن تزيل منه معالم أختها الخيالية المغلوطة.

وإن يوما في الريف

•••

سأل كاتب أميركي كبيرا من الإنكليز عما يعتبره من أهم مؤسساتهم القومية، فأجاب الإنكليزي الكبير بكل هدوء «لنا خمس مؤسسات قومية كبرى وهي: الملك، والبرلمان، ونهر التايمز، وجريدة التيمس» و«الويك إند»؛ أي عطلة نهاية الأسبوع.

وقد أصبحت عطلة نهاية الأسبوع اليوم من المؤسسات القومية البريطانية المقدسة التي لا يمكن التغاضي عنها أو التلاعب بها ككثير من الأمور في هذه الحياة الدنيا. وتختلف هذه العطلة زمانا ومكانا باختلاف أصحابها. فالمسألة لا تخرج عن كونها مسألة نسبية على رأي صاحبنا أينشتاين. غير أن المتعارف عليه بين جمهرة الأمة هي أنها تبتدئ عصر السبت وتنتهي صباح الإثنين من كل أسبوع طبعا، وتمتد في بعض الأحوال، من ظهر الجمعة إلى ظهر الإثنين، وقد عرف أن نطاقها اتسع في بعض الحالات فامتدت من عصر الخميس إلى عصر الثلاثاء، إذ لا بد للمرء أن يلقي نظرة عابرة على أعماله يوما في الأسبوع على الأقل وكفى الله الأثرياء شر العمل، وعلى كل فكل ما يستطيع المرء أن يحمله تحت إبطه مترين من البفت، هذا إذا وجدوا له البفت، وإلا، ففي المالطي البركة، وما المالطي على إنسان بعزيز.

ويختلف المكان باختلاف الزمان وأصحاب الزمان. فالفقراء والعمال وموظفو الدرجة الثانية يهرعون إلى الحدائق والمنتزهات العامة في قلب المدينة وحواليها يتأبطون سنادشهم (جمع سندويش) وهي ما

يسميه المتحذلقون المتفيهقون من أئمة اللغة القدماء جدا، بالشاطر والمشطور وبينهما الكامخ، وأظنهم يقصدون بالشاطر والمشطور قطع الخبز الرقيق. أما الكامخ فيتألف عادة من اللحم المقدد في أيام الخير ومن الجبن البلدي في هذه الأيام، وقد رأيت منها ما هو محشو بنوع من الحشائش الناعمة تشبه البقدونس فقط - قلت يتأبطون سنادشهم وترامیسهم، وهذه أيضا جمع «ترموس» وهي إناء عمودي الشكل يتكون من ماسورة في جوفها قارورة تحتفظ بحرارة السوائل. وتكون هذه السوائل إما شايا ساخنا أو قهوة مائعة دون سكر طبعا. هذه وتلك هما زوادة هذه الطبقة من القوم يلتهمونها هنيئا وقد افترشوا البطحاء السندسية، وهكذا يقضون اليوم بأكمله بعد أن يكونوا قد استنشقوا أكبر كمية ممكنة من الهواء النقي. وقد قال برنارد شو قديما «ليس الفقر بعار، ولكنه، قاتله الله، مزعج».

ويأتي بعدهم طبقة التجار وأصحاب المصانع الصغيرة وكبار الموظفين في الحكومة والمصارف. ويمتلك أكثر أفراد هذه الطبقة سيارات صغيرة يذهبون بها صحبة عائلاتهم إلى بقعة جميلة من الريف الإنكليزي الخلاب، أو إلى بلدة ساحلية على أحد الشواطئ للاستحمام أو الاستجمام.

أما أبناء الطبقة العليا الذين يتمرغون في أحضان النعيم والرفاهية كيفما كانوا وأينما حلوا، فقطار سريع إلى باريس أو يخت يجوبون به عرض البحار، أو طائرة يقفزون بها إلى الريفيرا حيث الشمبانيا الفرنسية المعتقة والكافيار الروسي الفاخر.. وقد كان هؤلاء فيما مضى من سالف الأيام ينتمون إلى طبقة اللوردات والنبلاء وكبار الأغنياء من

أصحاب الألقاب اللامعة والممتلكات الشاسعة. أما اليوم، فقد تبدلت الأرض غير الأرض وتبدل معها حال من عليها. فقد انسحب رجال الألقاب الضخمة القديمة من دنيا البذخ والرفاهية واحتل مكانهم فيها رجال الصناعات الحديثة بشمول أحدث انقلابا اجتماعيا طريفا في وجه تقليدي من أوجه الحياة الإنكليزية.

وعلة ذلك، أن تراكم الضرائب الضخمة، لا سيما ضريبة الدخل المتصاعدة، وضريبة الأيلولة، أرهق الأثرياء وذوي الأملاك وأنزل الثروة الفردية وقوة الإنفاق الفردي بينهم إلى الحد الادنى. فمهما بلغ الدخل السنوي الأساسي من مئات الآلاف لأحدهم. التهمت ضريبة الدخل المتصاعدة القسم الأعظم منها تاركة له بضعة آلاف قليلة حقيرة لا تشبع جائعا ولا تكسو عريانا. وقد اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أراضيهم وعقاراتهم لعدم استطاعتهم صيانتها والمحافظة عليها ومواجهة الضرائب. كما أن البعض منهم اضطر إلى بيع قصورهم الريفية الكبيرة أو مغادرتها والسكن في بيوت صغيرة في المدن لعدم استطاعتهم تحمل نفقاتها الباهظة لا سيما أجور الخدم العديدين هذا إذا استطاعوا الحصول على اليد العاملة للقيام بالخدمات المتعددة التي يتطلبها السكن في القصور الكبيرة المحاطة بالحدائق الغناء. أما رجال الصناعة الحديثة فلا يزالون يقطنون شققا متواضعة في أحياء العاصمة أو بيوتا صغيرة في الأرياف المجاورة وكلاهما قليل النفقات. وهؤلاء عادة لا أملاك لهم لأنهم محدثون في عالم الثروة والمجتمعات الراقية. وهم يتحاشون الضرائب، لا سيما ضريبة الدخل، بطرق حديثة فنية لا تخلو من طرافة. فيحدد المدير منهم مثلا لنفسه راتبا صغيرا

متواضعا، لنقل مئة جنيه على سبيل المثال. وهو راتب كما ترى أقل من القليل. ولكنه يربط بهذا الراتب مخصصات عديدة كسيارة وسائق ومنزل سكن ونفقات ضخمة للتشريفات والضيافات لمصلحة المؤسسة طبعا، وإجازة عمل مدة شهرين في أميركا أو سويسرا مثلا، كل هذه الأمور على حساب المؤسسة الصناعية وكلها لا علاقة لها البتة في موضوع ضريبة الدخل او غيرها من الضرائب. وهناك ما يشبه هذه الحالة الشيء الكثير في روسيا اليوم، فالرفيق الشينسكي مثلا راتبه الشهري عشرون جنيها فقط لا غير، أما السيارة الضخمة والمنزل الفخم والخدم والحشم والألواج في الأوبرا والفوتكا والكافيار فأشياء تقدمها الدولة ولا علاقة لها في الدخل والراتب لأن صاحبها عامل فقير لا يملك من حطام الدنيا سوى هذه الجنيهات العشرين التي هي راتبه الشهري ينفقها بكل تواضع على لفافاته من التبغ الروسي الفاخر. وزيارة واحدة للسفارة الروسية في لندن تنسى تلميذ التاريخ قصور البوربون وآل عثمان.

ولكن ما لنا قد خرجنا عن حديث «عطلة الاسبوع» موضوع هذا الفصل؟! فلنرجع إليه.

والحق أن عطلة نهاية الاسبوع ضرورية جدا ومفيدة لمن يعمل في هذه الحياة وذلك لإراحة الأعصاب وتجديد النشاط لا سيما للإنكليز فقد خرجوا من هذه الحرب أمة تعبانة بأعصابها شيء من الانزعاج لما عانوه من الأهوال خلال سنواتها الست وقد أصبحت هذه المطلة

هنا اليوم من ضروريات الحياة لا من كمالياتها، وانتشرت بشمول تام بحيث يتوقف دولاب الأعمال في جميع مرافق الحياة فلا عمل ولا تجارة، ولا مصارف ولا دوائر حكومية. وكل ما تجده بعض المقاهي والمطاعم ودور السينما الصغيرة.

من أقوال الإنكليز «إذا كنت في روما، فاصنع كما يصنع الرومان»، ومن اقوال العرب «اذا نزلت في قوم فاحلب في إنائهم» فاتباعا لهذا القول وذاك، حمل صاحبنا أمتعته تحت إبطه وهرع لتمضية نهاية الأسبوع في بلدة ريفية جذابة تقع على ضفاف نهر التايمز.

والحق أن الريف الإنكليزي من أجمل أرياف العالم إن لم يكن أجملها قاطبة. وقد وافق على هذا الرأي كل من تجولت وإياه بالريف البريطاني من الشخصيات العربية في هذا البلد. ومما احتفظ لهذا الريف بجماله النادر الساحر أن يد الإنسان لم تفسد فيه جمال الطبيعة البوهيمي. فكيفها سرت وأينما حللت تجد الماء والخضرة والوجه الحسن بكثرة وبكثرة هائلة. والريفيات الإنكليزيات حسان جدا تتدفق من وجوههن الحياة والنضارة والنشاط وذلك الصفاء العجيب في لون البشرة. ومن الخطأ الفادح أن يحكم المرء على الجمال الإنكليزي بما يراه منهن بالقاهرة أو بغداد أو يافا. فالمرأة الإنكليزية، ككثير من أخواتها من نساء العناصر التوتونية والاسكندنافية والأنكلوسكسونية إذا ما خرجت من بلدها وذهبت لتقطن في بلد من بلدان المناطق الحارة ذبلت وكلح لونها تماما كما تذبل الوردة الجميلة إذا ما اقتطفتها وألقيت بها تحت شمس الصحراء المحرقة.

ومـما يزيـد في جـمال الريـف البريطـاني تنوعـه الرائـع. ففـي الجنـوب سـهول وشـواطئ، وفي الوسـط هضـاب وتـلال واوديـة، وفي الشـمال جبـال وبحـيرات متسلسـلة تكسـوها كلهـا مـروج خـضراء سندسـية كأنـك تطـأ أرضـا مكسـوة بالسـجاد العجمـي الفاخـر، والأشـجار الوارفـة الظـلال التـي لا تفارقهـا خضرتهـا يومـا في السـنة، يزيدهـا اعتـدال الطقـس ورطوبتـه بهـاء ونضـارة. إن في الريـف الانكليـزي بقعـا قـدت مـن جنـات النعيـم. وإن يومـا في هـذا الريـف لخـير مـن خمسـين سـنة في دخـان العاصمـة وضبابهـا الكثيـف إن سـمح لنـا أديبنـا الكبـير باسـتعارة قولـه المأثـور.

شكسبير بين الإنجليز وعاصفة هوجاء

•••

ظهرت الصحف صباح يوم وفي بعضها صور فوتوغرافية لجمهور كبير من الرجال والنساء، يبلغ عددهم الثلاثمئة، ينتظرون، طبق نظام الصف، خارج مسرح «الأولد فيك» ليتمكنوا من الحصول على مقاعد في ذلك الملهى القديم لمشاهدة إحدى مسرحيات شكسبير وكانت «الملك لير».

وأضافت الصحف على الخبر، بأنهم انتظروا ستا وثلاثين ساعة متتابعة، وأن بعضهم أتى بالمقاعد الطويلة ليستلقي عليها وببعض الأغطية والمأكولات الناشفة.

إلى هنا والخبر بسيط مع غرابته الشديدة. ولكنك تجد في الصحف نفسها، وعلى عرض ثمانية أعمدة من صفحاتها الأولى عناوين ضخمة تحمل إليك أنباء مزعجة مروعة تنبئك بأن في تلك الليلة نفسها اجتاحت الجزيرة البريطانية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب عاصفة هوجاء لم تشهد لها البلاد مثيلا في شدتها واتساع مداها وجسيم ما أحدثته من الخسائر في الأرواح والأموال. فقد اقتلعت الأشجار من جذورها، وأتلفت المزروعات الموسمية، وتهدمت بيوت عديدة وأزهقت أرواح كثيرة في البر والبحر والجو، وغرقت بعض سفن الصيد وقذف ببعضها الآخر إلى البر، وفي تلك الليلة نفسها أيضا بلغت البرودة درجات تحت الصفر، فجمد بعض البحيرات الصغيرة، كما فاضت بعض الأنهر واكتسحت مياهها مدنا صغيرة أغقت شوارعها

وميادينها وهدمت القديم من بيوتها فأصبح المئات من العائلات الفقيرة دون مأوى. وقد توجت هذه العاصفة العجيبة أعمالها بأن قصمت ظهر باخرة أميركية كبيرة في مياه خليج ليفربول فشطرتها شطرين متساويين.

وقد ظهرت في الصفحات الأولى من صحف صباح الأحد في ٢٢/٩/١٩٤٦ صور جوية رائعة، قبل الشطر وبعده لهذه السفينة البالغة حمولتها ثمانية آلاف طن خلال مثل هذه العاصفة انتظر ثلاثمئة إنكليزي وإنكليزية الليل بطوله على قارعة الطريق وفي الهواء الطلق ليتمكنوا من مشاهدة رواية تمثيلية. ولو كان الحادث تتويج ملك جديد مثلا أو شنق رئيس وزارة، أو محاكمة رئيس أساقفة لكان في الأمر ما يبرر هذا الانتظار لأن حب الاطلاع غريزة كامنة في النفوس، وهذه أمور قد لا تحدث الامرة في العمر. أما والمسألة مسألة رواية! وأية رواية؟ رواية مضى عليها ثلاثمئة سنة وهي تمثل كل شهر تقريبا في مسرح ما، يحفظ كلامها عن ظهر قلب، صبية المدارس الابتدائية. والحق، كما قال العالم التركي: «هذا شيء لا نفهمه لا نحن ولا أنتم».

مع أن التحليل في ذاته بسيط. أمامنا في المشهد عاصفة، وزمهرير، وريح صرصر، وبرد قاتل، ولكن لا تنس أن في الطرف الثاني يوجد إنكليز، وقد صدق من قال إذا كانت البرودة قاتلة، فالبرادة أقتل وأشد تنكيلا. وكل ما في الأمر أن هذه الأمة عقدت النية على أن تعيش؛ ولذلك يصعب عليها أن تموت.

روح الجماعة عند الإنجليز

•••

لكل أمة من الأمم، كما لكل فرد من بني البشر، ميزات وخصائص تميزها عن غيرها من أمم الارض. ومن ميزات الأمة الإنكليزية تغلغل «روح الجماعة» في جميع أوساطها وطبقاتها على شكل يدعو إلى الدهشة والإعجاب. والمقصود بروح الجماعة، هو أن ينسى الفرد نفسه ومصلحته كل النسيان عندما يرى شخصا آخر أو جماعة أو هيئة في حاجة إلى معونة أو مؤازرة فيبذل غاية جهده في سبيل هذه المعونة أو تلك المؤازرة. وينطبق ذلك على الأعمال الخيرية، أو الرياضية، أو السياسية، أو الثقافية وغيرها من أوجه الحياة اليومية. فالإنكليزي لا يؤمن «بالفردية» ولا يعتقد بأنه وحدة مستقلة في هذا الكون يجب أن يبذل كل مجهوداته في سبيلها وأن يسخر لها الآخرين. وتتجلى هذه الميزة بأروع مظاهرها عندما تنتاب مجموع الأمة محنة أو تصاب بضنك. وشعارها في ذلك كله «الفرد في خدمة المجموع، والجميع في خدمة الفرد».

وقد وقعت خلال أسبوع واحد من هذا الشهر (أكتوبر سنة ١٩٤٦) حادثتان لهما دلالتهما في هذا المضمار.

الأولى: جندي نفر ينتمي إلى إحدى الوحدات البريطانية المعسكرة في مكان ما جنوبي فلسطين يتناول ورقة في فترة ضجر ويكتب إلى جريدة صغيرة في بلدته في غربي إنكلترا يطلب منها أن ترسل إليه بعض المجلات أو الكتب ليسد بقراءتها أوقات فراغه. وبعد ثلاثة أشهر من نشر هذا

الكتـاب يضطـر الجنـدي نفسـه أن ينـشر نـداء في الجريـدة نفسـها يرجـو فيهـا أهـل النخـوة أن يتوقفـوا عـن إرسـال الكتـب والمجـلات لأن خيمتـه لم تعـد تتسـع لآلاف الكتـب التـي وصلتـه، وأن مـن أراد منهـم إرسـال شيء، فليرسـله إلى مستشـفيات الجيـش في منطقـة غـزة مـن أعـمال فلسـطين. وفعـلا وجهـت الكتـب إلى المستشـفيات فلـم يبـق مريـض فيهـا إلا ولديـه الـشيء الكثـير منهـا يتمتـع بقراءتهـا خـلال إقامتـه في مستشـفاه.

الثانيـة: مرضـت فتـاة صغـيرة تبلـغ الحاديـة عـشرة في قريـة مـن قـرى شـمال إنكلـترا فقـرر الطبيـب أن علاجهـا الوحيـد عصـير البرتقـال تتناولـه خـلال أسـابيع خمسـة. وعنـد نهايـة الأسـبوع الثالـث كانـت المريضـة قـد اسـتهلكت كل مـا اسـتطاع ذووهـا الحصـول عليـه مـن هـذه الفاكهـة القيمـة النـادرة في تلـك البـلاد. فـأذاع أبوهـا يطلـب العـون. وهنـا يتنـاول هـذا الأب الـكلام فيقـول: ولم يمـض يومـان عـلى إذاعتـي هـذه، حتـى أصبـح بيتـي وكأننـي مـن تجـار الجملـة في هـذه الفاكهـة، إذ وصلنـا مـن مجهولـين كميـات مـن البرتقـال مـا لـو أكلـت منـه ابنتـي طـول حياتهـا، لمـا اسـتهلكت نصفـه. فاحتزنـا حاجتنـا، وأرسـلنا الباقـي إلى المجلـس البلـدي الـذي تـولى نقلـه وتوزيعـه إلى المستشـفيات».

هـذا مـع العلـم بـأن البرتقـال مـن المـواد التـي يصعـب إرسـالها في البريـد، وأنـه غـالي الثمـن جـدا، وأنـه يـوزع بواسـطة السـلطات عـلى مـن هـم في حاجـة إليـه مـن الأطفـال والمـرضى، ولا يسـتطيع الإنسـان الحصـول عليـه في الأسـواق الحـرة.

ومـن الاعتقـادات العالميـة أن رجـال «سـكوتلاند يـارد» أقـدر بوليـس العـالم في اكتشـاف الجرائـم، وينسـب بعـض كتـاب القصـص البوليسـية إليهـم أعـمالا وحـوادث تتضـاءل أمامهـا المعجـزات. والحقيقـة أن في الأمـر شـيئا مـن المبالغـة. لا شـك في أن رجـال التحقيـق في اسـكوتلاند يـارد يقومـون بواجباتهـم خـير قيـام بمهـارة وبراعـة.. ولكـن غيرهـم أيضـا مـن بوليـس بعـض البلـدان الأخـرى يفعـل ذلـك. وقـد قـام البوليـس المـصري في السـنوات القليلـة الماضيـة باكتشـاف جرائـم اعـترف لـه بالتفـوق والمهـارة فيهـا الغريـب قبـل القريـب. والمسـألة هنـا هـو أن الإنكليـز في بلادهـم أمـة «إنسـانية» يمقتـون الجرائـم ويقدسـون النظـام والقانـون. والـذي يحـدث هـو أنـه عندمـا ترتكـب جريمـة قتـل مثـلا، ينقلـب كل إنكليـزي وإنكليزيـة إلى «بوليـس» ويبـذل كل جهـد في سـبيل مسـاعدة رجـال السـلطة فـلا ينقـضي عـلى ارتـكاب الجريمـة أسـبوع إلا والأغـلال في عنـق القاتـل. فيهلـل العـالم بـأن اسـكوتلاند يـارد تـأتي بالمعجـزات. هـذا مـا يحـدث هنـا، أمـا في بعـض البلـدان الأخـرى مـن هـذا الكـون، فيعتقـد النـاس أن مـن واجباتهـم تضليـل رجـال السـلطة عنـد وقـوع الجرائـم.

هـذه أمثلـة صغـيرة عـلى انتشـار روح الجماعـة وتغلغلهـا في نفـوس الإنكليـز. وقـد يكـون للفطـرة أصبـع في ذلـك، ولكـن الـذي اعتقـده أن في الأمـر يـد كـبرى للأخـلاق والتربيـة.

مجلس اللوردات

•••

- هل يأمر سيدي اللورد بتناول الشاي؟

- من فضلك، ولاثنين

- أنرك ميلورد.

وانصرفت بانحناءة وقورة. كانت شقراء فتية، زاد شقرتها بهاء فستانها الحريري الأسود المزركش بالدانتيلا البيضاء. وكانت إحدى وصيفات قاعة الشاي في مجلس اللوردات. ويبلغ جليسي ومضيفي - وكان اللورد الزيهو – السابعة والسبعين وكان يشرح لي ببطء تاريخ الصور والتماثيل التي تزين جوانب القاعة عندما أحضرت فتاتنا الشاي وملحقاته. وهنا انتقلنا فجأة من مجلس اللوردات إلى مقهى صغير وفي الحي الشرقي، وكان وسيط هذا الانتقال، صينية الشاي، إذ إن تطبيق نظام الحصر والتوزيع في بريطانيا يبتدئ من قصر باكينغهام.

قال مضيفي: «أنتم الشرقيون تحبون الشاي حلوا، فخذ أنت جميع ما في الإناء من السكر». وكان بودي التأدب ورد المجاملة، ولكن نظرة واحدة إلى جميع ما في الإناء جعلتني أعدل وأمتثل. أما هو، فأخرج من جيبه أنبوبا فضيا صغيرا، واعتاض عن السكر بالسكرين. ثم نهضنا ودفع مضيفي ثمن الشاي، شلنا وثلاث نحاسات، وكان مع الشاي كعكة واحدة وشريحتان من الخبز المطلي بالزبدة للشخص الواحد، وذلك هو سعر السوق في المحطات والارصفة. وكانت جلستنا في هذه القاعة بما فيها ومن فيها، مزيجا منسجما من عظمة الماضي

وأرستقراطيته، وتضييقات الحاضر وديمقراطيته، واصطحلني مضيفي إلى شرفة الضيوف الممتازين - هكذا تسمى -وقال «قد لا تحتمل البقاء طويلا، وباستطاعتك مغادرة القاعة حينما تشاء». وأردف معتذرا «أما أنا فعلي أن أغادر مبكرا، فقد تواعدت مع بعض الزملاء على زيارة برنارد شو، فهو صديق قديم وقد حضر الليلة إلى لندن من بيته الريفي»، ثم ضحك وتمتم وهو يهز رأسه: وبرنارد شو كما تعلم شيخ عجوز ويهمنا أمره.

وإذا رجعت إلى مستهل هذا الفصل أيها القارىء اللبيب، عرفت بأن محدثي لم يكن في الثامنة عشرة، بل تجاوز السابعة والسبعين، ولكن الظاهر أن نظرية النسبية لصاحبنا أينشتاين لا تزال سارية المفعول. ولم أحتمل البقاء طويلا كما تنبأ صاحبي. ولكنني شهدت جلسة استعرض التاريخ نفسه خلالها أمامي بالزخرف والأثاث، والأعمار والأفكار. ويبلغ مجلس اللوردات اليوم الثمانمئة، وهو أكبر عدد بلغه في تاريخه. وعدد الأعضاء في هذا المجلس غير محدود، بعكس مجلس العموم فعضويته محصورة بين ستمئة أعضاء وأربعين مقعدا.

والسبب في وصول عدد اللوردات إلى هذا الرقم الهائل، هو الحرب ووزارة العمال. أما الحرب، فلأنها تتيح الفرص للكثيرين للقيام بأعمال باهرة في خدمة وطنهم ومليكهم، فينعم عليهم بالألقاب الرفيعة فيصبحون لوردات بحكم اللقب والأعمال، ويتفوق في هذا المضمار العسكريون من أمثال مونتغومري، وألكسندر، وويلسون، وغيرهم كثيرون.

وأما وزارة العمال فلأنها تريد أن يكون في المجلس من يمثل وجهة

نظرها، فتغدق بالألقاب على بعض رجالها وتخلق منهم عمالا لوردات، ويشترك في هذا المجلس كأعضاء بحكم الوظيفة رجال الدين من درجة رئيس أساقفة فما فوق. ويشتركون في الجلسات بألبستهم الكهنوتية، وتلجأ بعض الحكومات إلى الإنعام على بعض كبار السياسيين بالألقاب حتى ينتقلوا إلى مجلس اللوردات فتتخلص منهم من مجلس العموم، والإنعام باللقب هنا، وضع سياسي على الرف، ولذلك رفض صاحبنا تشرشل أضخم ألقاب الشرف عندما حاولت الوزارة الحالية الإنعام بها عليه لأنه لا يريد أن يحال على التقاعد من ميدان السياسة.

هذا عددهم، أما عدد الذين يحضر منهم الجلسات المادية فمسألة ثانية، إذ إنه في هذه الحالة يكون حول الخمسين. وهذا العدد قابل للنقصان لا للزيادة إلا في حالات استثنائية مثل إعلان حرب، أو إبرام معاهدة، أو المناداة بملك جديد. وكانت جلستنا من هذا الطراز، ثمانية وأربعون عضوا فقط لا غير وبينهم المحافظون والأحرار والعمال والأساقفة والمستقلون والوارثون. كان موضوع المناقشة في هذه الجلسة «تخمين الفلاحة الجبلية في جنوبي اسكتلندا». وكان المتكلم عندما دخلت، أحد قدماء اللوردات من أصحاب الأملاك الشاسعة في اسكوتلاندا، وكان ينتقد الحكومة لفرضها تخمينا جديدا يضر بمصلحة الملاكين، وبين يديه رزمة من القوانين واللوائح يستشهد ببعض فقراتها.

وطال الحديث، وكان اللورد عجوزا يتكلم بصوت خافت، وكان بعض اللوردات أثناء ذلك يخرجون لتناول الشاي ثم يرجعون. ورأيت في أيدي بعضهم آلات صغيرة تشبه تلك التي تلتقط صورا متحركة فظننت أنهم

مـن غـواة السـينما أو التصويـر الليـلي، ولكـن مـا كاد الحديـث يبـدأ حتـى تبـددت ظنـوني، إذ سـحب هـؤلاء مـن آلاتهـم صمامـات صغـيرة بحجـم البندقـة أدخلوهـا في آذانهـم فتيقنـت آنـذاك بـأن المسـألة ليسـت تصويـرا سـينمائيا بـل للسـمع.

ولا يغربـن عـن بالـك بـأن نظـير مجلـس اللـوردات في البلدان الأخـرى مجلس الشـيوخ، وأعضـاؤه عـادة ليسـوا مـن الشـبان اليفـع. وقـد طـال الحديـث وازداد صـوت الشـيخ خفوتـا، وهجـم النعـاس عـلى بعضهـم فرحبـوا بـه، وكاد يهاجـم المحـدث نفسـه، وهنـا تذكـرت حكايـة رواهـا الـدوق أوف ديفونشـير في مذكراتـه عـن مجلـس اللـوردات وكان عضـوا فيـه، يقـول فيهـا «وحلمـت ذات يـوم بأننـي ألقـي خطابـا في المجلـس وصحـوت مـن حلمـي فوجـدت أني حقيقـة كنـت أخطـب».

وتـولاني النعـاس فخفـت أن أقـع عـلى أرض المجلـس الخشـبية فأحـدث ضجـة تزعـج النيـام؛ ولذلـك نهضـت وخرجـت مـن القاعـة فاصطحبنـي الحاجـب ليرافقنـي إلى البـاب. والحاجـب مـن أطـرف مـن في هـذا المجلـس، شـاب طويـل أشـقر عريـض الصـدر مفتـول العضـل أنيـق جـدا. يلبـس فـراكا أحمـر وصدريـة بيضـاء وسروالا أسـود ضيقـا. يتـدلى عـلى صـدره الشـعار البريطـاني مـن الذهـب معلقـا بسلسـلة ذهبيـة عريضـة. أمـا الشـعار فبحجـم الكـف ويرتكـز عـلى رأس المعـدة. وقـد طبـع هـذا الشـعار بالذهـب عـلى جميـع مقاعـد المجلـس، منهـا مقاعـد الحجـاب والحـرس مـن الشرطـة، وكلهـا مـن الجلـد الأحمـر القـاني وتتجـلى عظمـة هـذا المجلـس بأبهـى مظاهـره الأرسـتقراطية يـوم افتتـاح البرلمـان، إذ يتـولى ذلـك الملـك

بنفسه تصحبه الملكة وهما بالتاج وحلل التتويج يحوط بها اللوردات ببزهم الرسمية التقليدية المذهبة وسيوفهم المرصعة بالأحجار الكريمة وأوسمتهم البراقة تصحبهم «اللوادي» عقيلاتهم وقد زانت كل منهم رأسها بتاج يدعى «تيارا» يصغر ويكبر، ويضيق ويتسع حسب لقب البعل الكريم. صحيح أن كلا منهم يحمل لقب لورد ولكنهم يختلفون في درجات النبل والشرف فبينهم البارون، والفيكونت، والسكونت، والمركيز والدوق، وهو أرفع الدرجات، ويحمله إخوة الملك، «ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات».

ويؤلف مجلس اللوردات جناحا من عمارة البرلمان البريطاني وتدعى «وستمينستر» ويقع في بقعة من أجمل بقاع لندن وعلى ضفة نهر التايمز بين جسري وستمينستر ولندن. وله شرفة تاريخية مشهورة ومتسعة جدا تطل على النهر مباشرة ويتناول فيها اللوردات الشاي خلال ثلاثة أيام الصيف في العاصمة. ومن أراد الاطلاع على تاريخ أبي البرلمانات ونشأتها وتطوراتها فليقرأ المقال الممتع عنها في «الإنسيكلوبيديا بريتانيكا».

مدام توسو

•••

في بقعه هادئة من أجمل أحياء لندن الأرستقراطية، يقع هذا المتحف العجيب الفريد، ويعرف بمتحف الشمع. وسبب هذه التسمية أنك تستعرض فيه أشهر شخصيات التاريخ من الملوك القاهرين إلى كبار المجرمين العالميين وما بينهما من وزراء وكرادلة وقواد وربابنة، وأدباء وفلاسفة، ورياضيين ومخترعين، وكواكب سينما وهزليين، وجوابي آفاق ومتسكعين، وكلهم بالحجم الطبيعي وبدقة من الصنع يكاد الواحد منهم يتحدث إليك لولا أنه من الشمع.

قد يلاحظ القارئ الكريم بأن كاتب هذه الصفحات قد تحاشى عمدا الكتابة عن المتاحف والمعاهد والأندية من مثل المتحف البريطاني الهائل وعشرات المتاحف الحربية، والعلمية، وجنينة الحيوانات، وغيرها. فهذه من المؤسسات القومية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل وقد كتب عنها عشرات المجلدات الضخمة، ولذلك فهي لا تقع ضمن نطاق الغاية المتوخاة من هذا الكتيب، أما هذا المتحف الطريف فليس كذلك إذ إنه دائم التغير والتبدل مع الزمن والظروف، فهو دوما في دور التطور والانتقال من حال إلى حال. فان كان المحافظون في الحكم أخذوا مكان الصدر من القاعة الكبرى فإذا ما عبست في وجوههم صناديق الانتخاب، وضعوا على الرف واستبدلوا بالعمل والعمال ووزراء العامة.

ومدام توسو من أكثر متاحف لندن زوارا ومن أقربهم إلى نفوس الرواد من أهلين ونزلاء. وقد اتخذ اسمه هذا من اسم مؤسسته، وهي سيدة سويسرية الأصل قضت السنين النضرة من حياتها بين قصور الملوك وغياهب السجون، لها حكاية طريفة لا بأس من روايتها ببضعة أسطر لما فيها من عبر التاريخ التي ينبئنا بعضها بأن نزوات السياسة وبطش السياسيين تتسرب حتى الى مخادع الفنانين المثاليين فيعمل بهم تعذيبا وتنكيلا.

في أواسط القرن الثامن عشر ظهر في مدينة برن من أعمال سويسرا رجل يدعى كريستوفر كورتيوس برع في فن تكوين الاشخاص والأشياء من الشمع الأحمر. وقد سمع به البرنس دي كونتي فدعاه إلى فرنسا فهجر الرجل بلدته واستوطن باريس وما عتم أن أصبح محل عمله ندوة تجتمع بها الشخصيات البارزة في حياة باريس تلك الأيام وبينهم فولتير، وديديرو، وجان جاك روسو، وميرابو. وفي هذه الندوة نجد الفتاة ماري غريهولتز، ابنة شقيقة المثال، والتي قدر لها أن تعرف في التاريخ باسم مدام توسو بعد زواجها من رجل فرنسي.

تحسس كورتيوس النبوغ في عيني قريبته الفتية، فعلمها فنه، وإذ بها تتفوق عليه وتبزه في برهة وجيزة فيقول عنها أحد الكتاب «إن في اناملها المرنة من السحر الرائع ما يذهل العقول ويستولي على مكامن النفوس». وكانت صناعة نحت التماثيل من الشمع بدعة الزمن في تلك الايام فاستدعتها مدام إليزابيث، شقيقة لويس السادس عشر، لتقيم معها في قصر فرساي وتدرب سيدات القصر على فنها النادر.

وكانت تسع سنوات طوال قضتها مدام توسو في القصور بين الملوك.

وتجمعت غيوم العاصفة في سماء فرنسا تنذر بالشر المستطير في كل لحظة، وشعر كورتيوس بقرب هبوب العاصفة فاستدعى قريبته من وسط القصر الخطر لتقيم في منزله آمنة مطمئنة. وهنا شهدت هذه الفتاة الفنانة الشرارات الأولى من لهب الثورة الجارفة. ففي اليوم الثاني عشر من تموز سنة ١٧٨٩ طرق باب بيت كورتيوس ثلة هائجة من الغوغاء تطلب إليه صنع تماثيل لأبطالهم ليحملوها في مظاهراتهم الصاخبة في شوارع باريس، وكانت لحظات تاريخية في حياة فنانتنا. ولم يتفرق المتظاهرون إلا بعد أن أريقت الدماء. ولما بلغ الخبر مسامع لويس السادس عشر صاح في وجه وزرائه أتمرد هذا؟ فأجابه كبيرهم بهدوء: «بل هي الثورة يا مولاي!» وبعد يومين اثنين دكت أبواب الباستيل.

واختبرت فتاتنا تقلبات الايام، وتعرضت لحوادث مفجعة قدر لها ان تصاب بها خلال السنوات المليئة بالمآسي والآلام التي تلت هذا الانفجار. فقد نضجت الاضطرابات وتبلورت ثم تحولت إلى ثورة مخيفة ما فتئت أن انقلبت إلى عهد من الإرهاب الفتاك. وكان الإرهاب في حاجة إلى تماثيل من ضحاياه، وهل غير أنامل ماري غريهولتز لهذه المهمة الخطيرة؟ وأجبرت هذه الفتاة الفنانة الرقيقة والدموع ترقرق في عينيها، على أخذ طبعات لرؤوس مفصولة عن أجسامها كي تصنع منها تماثيل من الشمع، رؤوس كان أصحابها من أعز الاعزاء على قلبها، رجال ونساء قضت في رفقتهم أعذب سني حياتها بين قاعات فرساي

وحدائقها الغناء، وقد حزت في نفسها هذه الذكريات المؤلمة طيلة ما تبقى من سني حياتها.

وتتقلب الأيام والأيام دول، وتتطور الثورة، فيذهب مولعوها وقودا لها، فيؤتى إلى فتاتنا برؤوسهم بعد فصلها بدقائق معدودة لتصنع لها التماثيل، وتلقي بنظرة عليها فإذا بين هذه الرؤوس التي لا يزال الدم الساخن يقطر منها، رأس مارت صديق الشعب ورأس شارلوت كوداي التي اغتالته، ورأس روبسبير وغيرهم. وهنا تشعر فتاتنا بلذة نفسية خفية يشوبها آلام وتحيط بها الأحزان. ولم تنج فتاتنا من الشر المنتشر الشامل، فألقيت في غياهب السجن، وهي ربيبة القصور.

وكانت شريكة آلامها واضطهادها في الزنزانة جوزفين دى بوهارنا، التي أصبحت بعد قليل الإمبراطورة جوزفين سيدة قصر نابليون وقلبه. وخمدت الثورة، وهدأت نوباتها الجنونية، ومات الخال فتزوجت الفتاة من فرنسوا توسو سنة ١٨٩٥ وإذا بنا نراها ذات صباح في قصر التويليري وقد دعتها رفيقتها في السجن الإمبراطورة جوزفين لتصنع لها تمثالا لرأس زوجها الإمبراطور نابليون بونابرت، وقدرت الفنانة ما ينتظرها في هذا القصر من المجد والسؤدد، ولكنها آثرت الهدوء والطمأنينة في عزلة الاغتراب فاغتنمت فرصة «معاهدة إميان» وهجرت فرنسا، بلاد المآسي والذكريات المؤلمة، إلى الأبد.

وتأتي مدام توسو إلى إنكلترا سنة ١٨٠٢ وتنشئ متحفها الذي خلد اسمها حتى اليوم وسيخلده أبد الدهر، فتعرض فيه تماثيل من صنعها ومتحفا صغيرا أنشأه خالها في أواخر سني حياته، أسماه «كهف كبار

اللصوص» حولته فيما بعد إلى «غرفة الأهوال» وأضافته كجزء متمم إلى متحفها هذا، وقد أصبح اليوم من أشهر متاحف العالم وأروعها لما يحتويه من أشهر مشاهير شخصيات العالم، الأخيار منهم والأشرار، الأحياء منهم والأموات.

ولكي تكون فكرة عامة عن موجودات هذا المتحف الفني، إليك أيها القارئ بضع نتف وعينات: نبدأ من الأهم فالمهم فندخل معك القاعة الكبرى في الطابق الاول. فاذا بك في صالة متسعة لها روعة وهيبة، أضيئت بترتيب فني مدهش وقد استقرت في جوانبها اثنتا عشرة جماعة تؤلف كل منها وحدة مستقلة في جانب بارز، فتسير من اليمين إلى اليسار حسب الإرشادات الصامتة فتجابهك الجماعة الأولى وهي لمشاهير الوزراء في تاريخ الإنكليز وبينهم بت وتشمبرلن، وغلا دستون ولويد جورج وماكدونالد ودزرائيلي. تتلوهم جماعة الماريشالية يعلوهم هامة أو هامتين مونتغمري. وترى بينهم ويفل، وويلسون، وغورت، والانبروك، ودل. أما الجماعة الثالثة فالعائلة المالكة، الملك والملكة وبنتاها، وإخوة الملك وزوجاتهم وأولادهم حاشا الدوق أوف وندسور والدوقة زوجته فقد انزويا في ركن فني مستقل، بعيد عن العيون والأرصاد. ثم رجال الجو والبحر، ويتوسط القاعة، وكأنهم في اجتماع هام، رجال الحكم الحالي، كليمنت اتلي ووزراؤه وكلهم من العمال حتى اللورد ستانسجيت واللورد جوويت. وتعترضك زاوية صغيرة متواضعة تلفت النظر لغرابة عناصرها الثلاثة وهم: نابليون، والجمال الراقد، وهو عبارة عن أميرة شابة رائعة الجمال ولها أسطورة

غريبة. أحبت هذه الأميرة شابا جميلا منع من الزواج منها فنامت ولم تفق طيلة مئة سنة وقضى الشاب نحبه طبعا، وهنا، وبعد مئة سنة، تدخلت عجوز ساحرة كانت تعطف عليهما إبان غرامهما فعصرت في فم الشاب بعض الحشائش أرجعت إليه الحياة فذهب إلى مخدع حبيبته فوجدها لا تزال نائمة تتنفس، فَهَمَّ بتقبيلها وما كادت شفتاه تلامس شفتيها حتى رجعت إليها الحياة. وقد لا يجد القارئ أية صعوبة في تخيل الخاتمة. ولا يزال هذا التمثال نائما يتنفس في المتحف حتى اليوم. والشخص الثالث في هذا الثالوث الغريب هو مدام توسو نفسها، تنظر إليها لترى العقل الجبار والفن الخالد فإذا بك أمام امرأة قروية ساذجة، ضئيلة، صغيرة، تبلغ من العمر الخامسة والثمانين وهي بشكلها هذا وبمنظاريها الغليظين وشالها الرمادي البالي أشبه شيء بإحدى عجائز فرنسا القرويات اللواتي يتعاطين بيع الخضروات أو الحليب والجبن في حانوت صغير، وترجع إلى صوابك مرة أخرى وتستمر في استعراض الجماعات فترى مشاهير رجال البرلمان في الماضي والحاضر وعلى رأسهم تشرشل. ثم رجال الدين من جون نوكس ولوثر إلى هرتز كبير حاخامي الإمبراطورية يتوسطهم جميعا البابا بيوس الثامن عشر. ويلي هذه الجماعة الكهنوتية، رؤساء الولايات المتحدة، فرجالات الحكومات المتحدة من أمثال أيزنهاور وماك أرثر وبطرس الثاني، وليوبولد الثالث، وجورج ملك اليونان وها كون ملك النروج وستالين ومولوتوف ودي غول وتشان كاي شيك وفرنكو وعلى رأسهم جميعا وعلى منصة عالية ملك الملوك هيلاسلامي إمبراطور إثيوبيا والهرر. وبهذا تكون قد أتممت القاعة الكبرى باستعراض خاطف رأيت فيه

جميع هذه الشخصيات بأحجامها العادية وبألبستها التقليدية وعلاماتها المميزة التي اشتهرت بها في حياتها مثل بيريه مونتغومري وبرنس هيلا سلامي، ومونوكل تشمبرلن، وسيكار تشرشل، ولحية سمطس ويكاد كل منهم أن يحدثك أو يبتسم إليك فتشعر وكأنك تود أن تمد يدك إليه لتصافحه ثم تتذكر حالا بأنه من الشمع الأحمر ينقصه شيء يدعى الحياة.

وتتعدد القاعات والطوابق فالتاريخ طويل والجماعات فيه عديدة والمشاهير منهم كثيرون وقد يملأ المرء المجلدات عنهم ولا يفرغ من وصفهم، ولكن لمعا خاطفة قد تؤدي بالغرض المطلوب في هذا الفصل الضيق من الحديث. فجماعة الأدب تملأ قاعة بأجمعها فمن شكسبير إلى كبلنج إلى ديكنز إلى بيرون إلى جورج برنارد شو. وجماعة واضعي الأرقام القياسية في مختلف أنواع الرياضة والسباقات وتجد بين جماعة الشخصيات العالمية غاندي، ولورنس، بألبسته البدوية الجذابة وكمال أتاتورك ويكاد يلتهمك بنظراته الحادة القاسية. ويرجع إليك صفاء نفسك وهدوءها وتنتشر على وجهك ابتسامة الابتهاج عندما ترى شارلي شابلن بين جماعة الفنانين بين ماي وست - نعم ماي وست - ومارلين ديتريش. وهناك قاعة خاصة لملوك إنكلترا من وليم الفاتح النورماندي إلى جورج الخامس.

ونختتم هذه الزيارة المبهجة المروعة بنظرة عابرة، وأنت تغادر القاعات، تلقيها على جماعة صغيرة في زاوية حقيرة على طرف السلالم. فتدفعك عاطفة حب الاطلاع نتقرب منها قليلا وإذا بوجوه يخيل إليك

أنك رأيتها من قبل ثم تحدق بها خلال ظلمة مصطنعة وإذا بك أمام هتلر وجها لوجه وإلى يمينه موسوليني وإلى يساره لافال يحيط بهم غورنغ وريبنتروب وهس وغو باز وروميل وقد ارتدوا ثيابا بسيطة رثة علاها الغبار، وكأنهم وقد مضى عليهم أيام يسيرون على الأقدام بالصحراء، وقد جردوا من رتبهم وأوسمتهم وسيوفهم. فأصبحوا وكأنهم أسرى حرب بعد معركة حامية. وقد كتب أمام اسم كل منهم جملة واحدة تشير إلى عمله في الحياة أو إلى طريقة انتهاء حياته. فهتلر مثلا أحد زعماء ألمانيا السابقين ولافال رئيس حكومة فيشي أعدم يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤٥، أما موسوليني فدكتاتور فاشستي أعدمه الوطنيون الإيطاليون.

وتهبط السلالم بعد أن تتذكر بأن عليك زيارة «غرفة الأهوال» فيعترض طريقك أحد موظفي المتحف بألبسته الرسمية فتسأله عن الطريق المؤدي لهذه الغرفة وإذا به تمثال من الشمع، فتضحك من نفسك وتستمر في السير فاذا بك في «غرفة الأهوال».

وتسميتها بالغرفة مسألة نسبية لدى مقارنتها بالمتحف نفسه، والحقيقة أنها قاعة كبيرة مستديرة ذات تعاريج ودهاليز. وتختلف عن سائر قاعات المتحف من حيث إن ما تحتويه لا تمثل أشخاصا منفردين، بل تابلوهات متقنة تمثل حوادث تاريخية معينة بأشخاصها وأجوائها وبالحجم الطبيعي والألوان الطبيعية فكأنك عند كل تابلو أمام مسرح تمثل عليه الحوادث ويقوم بتمثيلها الأشخاص نفسهم. ويكثر في هذه الغرفة تماثيل القتلة في حوادث إجرام تاريخية مشهورة ومناظر

المشاهير من المسجونين السياسيين كالكونت دي أورج الذي ظل ثلاثين سنة سجين الباستيل والمحاكمات المشهورة، كما يكثر فيها تابلوهات لحوادث طرق الإعدام التاريخية الشهيرة. ومن أشهر هذه التابلوهات وأروعها، تابلو يمثل أول من نفذ فيه حكم الإعدام بالكرسي الكهربائي في أميركا، وآخر يمثل إعدام الملكة ماري، ملكة اسكوتلندا سنة ١٥٧٨، وذلك بفصل رأسها عن جسدها بضربة بلطة هائلة، وقد ركعت الملكة ووضعت رأسها على سطح جذع شجرة مصقول. وترى في التابلو نفس البلطة والجذع اللذين استعملا في هذا الحادث، كما ترى في تابلو آخر آلة الجليوتين الأصلية التي استعملها الفرنسيون في إعدام مليكهم لويس السادس عشر وهي أول مقصلة في التاريخ، وتشبه مخرطة الورق التي يستعملها أصحاب المطابع، ويمثل التابلو هذه المقصلة المخيفة وهي تهوي على رقبة الكونت فيلبس أورزيني الذي حاول اغتيال نابليون الثالث. وهناك عشرات التابلوهات التي تمثل صورا تقشعر من هولها الأبدان من ألوان التعذيب والقتل البطيء في مختلف العصور والأزمان من كي وشي وبقر وجر ومن أغرب ألوان القتل البطيء هو القفص الحديدي. والقفص الذي يراه الزائر في هذه الغرفة نسخة مطابقة للأصل عن القفص الأصلي وقد وجد في صقلية في قصر ميلاتسو الذي بناه شارل الخامس. وقد خصص هذا القفص لإعدام الكهنة، فرجال الدين أجسادهم مقدسة لا يمسها الجلادون. فإذا ما حكم على أحدهم بالإعدام وضع داخل أحد هذه الأقفاص الحديدية وتدلى وهو في القفص خارج أحد جدران القصر الشاهقة وترك بوضع لا تصل

إليه يد إنسان وهكذا يعاني المسكين آلام الجوع والعطش حتى يدركه للموت فينقذه برحمته من هذه الآلام. هذه لمحة خاطفة عن هذا المتحف الرائع ويؤمه الزوار يوميا بالآلاف، ويتخطى عددهم عشرات الآلاف أيام الآحاد والأعياد ويرغبونه أكثر من غيره من المتاحف، ففيه يستعرض الإنكليز تاريخهم ببضع ساعات. وقلما تجد رجلا منهم أو امرأة لم يزره أكثر من مرة لاسيما الأجيال الفتية. وأكثر ما يحب الأطفال فيه «غرفة الأهوال» فيصحبهم الكبار ليحولوا دون رؤيتهم ما لا يجب أن يروه من المناظر المحظورة على الصغار كي لا تزورهم في أحلامهم فتقلقهم في منامهم وعند نهاية الزيارة يرجع الكبار وحدهم لزيارة الغرفة ثانية ومشاهدة ما حظروا مشاهدته على الصغار. وكما ذكرت في مستهل هذا الفصل، أن ما يبرر الكتابة عن «مدام توسو» دون عشرات المتاحف في لندن، ويزيد رغبة الناس في زيارته الفينة بعد الفينة، هو أنه دوما في دور التطور والانتقال. يتغير ويتبدل مع الأيام والحوادث، مع الحكومات والبرلمانات، مع الثورات والانقلابات، مع الحرب والسلم. والأيام قلب والدهر خئون، وتلك الأيام نداولها بين الناس، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

اليـد العاملة بين حربين

•••

كان مـن أكـبر المشـاكل القوميـة التـي واجهتهـا بريطانيـا بعيـد الحـرب العالميـة الأولى، معضلـة العـمال العاطلـين. فقـد انتهـت تلـك الحـرب فجـأة، كـما انتهـت حربنـا الحاليـة، وكـما تنتهـي أكـثر الحـروب. ولم تـترك أذيـالا طويلـة ومشـاكل كثـيرة خلفهـا، فسرحـت الجيـوش ورجـع الجنـود إلى بلادهـم بالملايـين، وبسرعـة لم يكـن ينتظرهـا أحـد، حتـى ولا لويـد جـورج نفسـه. وهنـا نشـأت مشـكلة العـمال العاطلـين، وبلـغ عددهـم في السـنين العجفـاء ثلاثـة ملايـين، وكانـت معضلـة أقلقـت الحكومـات الإنكليزيـة المتتاليـة طيلـة ربـع قـرن تقريبـا. ونفـخ هتلـر في بـوق الحـرب، فلبسـت الأمـة الإنكليزيـة ثيـاب الجنديـة، رجـالا ونسـاء شـيبا وشـبانا ولم يبـق في البـلاد مـن العـمال عاطلـين ولا عاملـين سـوى مـا اسـتبقاه المجهـود الحـربي.

وألقـى العـم سـام قنبلتـه الذريـة عـلى هيروشـيما، فهشـمها تهشـيما، وهنـا أدرك ابـن السـماء مـا تخبئـه لـه السـماء فسـلم وسـلم مـا تبقـى مـن العـالم مـن شر الويـلات. وانتهـت الحـرب كذلـك بسرعـة مفاجئـة لم يكـن ينتظرهـا أحـد حتـى ولا تشرشـل نفسـه. وكانـت نهايـة لم يعـرف التاريـخ لهـا مثيـلا، فـكان هنـاك انتصـار هائـل مكتسـح، وكان هنـاك انكسـار مميـت مبيـد. ومـع هـذا فـإن الجيـوش لم تـسرح، ولم يرجـع الجنـد إلى بلـده. إذ إن الحـرب أعقبـت خلفهـا عـشرات المشـاكل والذيـول. فألمانيـا الكـبرى لا تـزال تحـت الاحتـلال العسـكري المكثـف، وكذلـك إيطاليـا وجميـع دويـلات أوروبـا

الوسطى والشرقية من حليفات المحور. وفي اليونان وتريستا مشاكل تتطلب بقاء ما ينيف عن الخمسين ألف جندي من الإنكليز وحدهم. وهناك بلاد المغرب ومنها طرابلس، ثم: مصر وفلسطين، وإيران وحدود إيران، والهند وبورما والملايو، وهناك الصين وشنغهاي وجميع اليابان، في كل هذه البلاد مشاكل منها ما هو مزمن وأكثرها من مخلفات الحرب. وحل بعض هذه المشكلات أو أكثرها، يتطلب بقاء عدد لا يستهان به من الجنود تحت السلاح الكامل أكثرهم من الإنكليز. إذن هناك عشرات الألوف من الشابات والشبان الإنكليز لم يرجعوا إلى بلادهم بعد ليتعاطوا أعمالهم العادية في الميادين الاقتصادية والصناعية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبذل بريطانيا اليوم أقصى مجهوداتها في سبيل إنعاش ميدانها الاقتصادي وصناعاتها المحلية لتستعيد مكانتها المالية وتسترجع أسواقها العالمية. وقد ازداد الطلب بشكل هائل على اليد العاملة في جميع الأعمال والصناعات. ومن الظاهرات التي يلاحظها المرء اليوم في إنكلترا، نقص اليد العاملة بصورة بارزة. فأينما سار الإنسان، يرى اللوحات والإعلانات في واجهات الحوانيت وعلى ابوابها، وفي الصحف والمجلات، وكلها في طلب اليد العاملة في جميع الأعمال من صناعية وكتابية، وتجارية، وإدارية، وغيرها. وكان من جراء ذلك أن يجد الزائر في بعض الصناعات عناصر لم يكن يراها من قبل قط، كما أنه في كثير من الحالات، لا يستطيع الحصول على متطلباته اليومية إلا بشق الأنفس، وبعد انتظار لفترات من الزمن كانت فيما مضى خيالية.

وهـاك بعـض الأمثلـة: مـن سـائقو السـيارات العموميـة وماسـحو الاحذيـة تجدهـم عـادة في السـبعين فـما فـوق مـن عمرهـم المديـد. أمـا خـدام الفنـادق وخادماتـه (هـذا إن وجـدوا بالمـرة) فإنهـم يشـكلون دارا للعجـزة مـن الطـراز الأول. ومواضيـع بعـض الروايـات التمثيليـة في أكـبر مسـارح لنـدن حـول الخـدم وأزمـة الخـدم، وفي كثـير مـن المطاعـم والفنـادق الصغـيرة تضطـر للقيـام عـلى خدمـة نفسـك بنفسـك. تذهـب إلى خيـاط ليخيـط لـك بدلـة إذا توفـرت لديـك الكوبونـات اللازمـة والمـال فيجيبـك ‹بعـد سـتة أشـهر يـا سـيدي» فـإذا أفهمتـه بأنـك لا تسـتطيع انتظـار هـذه المـدة الطويلـة، وأنـك مضطـر لمغـادرة البـلاد قبـل ذلـك بزمـن طويـل، تكـرم وخفـض المـدة إلى اثنـي عـشر أسـبوعا وهـو الحـد الأدنى، أمـا الغسـيل فمـن ثلاثـة أسـابيع (وهـذا اكسـبريس، ولكنـه لا يصـل دائمـا في الموعـد المحـدد) إلى سـتة أسـابيع، وفي الأريـاف شـهران فأكـثر. وقـد اضطـر كاتـب هـذه السـطور إلى مغـادرة لنـدن للحـاق بباخرتـه وقـد تـرك وراءه ألبسـة كثـيرة بعضهـا في الغسـيل وبعضهـا الآخـر في التنظيـف وكلهـا كانـت أرسـلت قبـل مـدد تـتراوح بـين الثلاثـة أسـابيع والشـهرين، ولم يكـن شيء منهـا جاهـزا سـاعة مغادرتـه. ومـن طريـف مـا حصـل مؤخـرا؛ أن بعـض الإنكليـز مـن ربـاني الطائـرات التجاريـة التـي تسـافر بانتظـام بـين بريطانيـا والـشرق الأقـصى، يغسـلون ثيابهـم في فلسـطين ومـصر وسـيلان وأسـتراليا، إذ بهـذه الطريقـة فقـط يتمكنـون مـن الحصـول عليهـا نظيفـة بالسرعـة المطلوبـة.

وسـبب ذلـك كلـه أن المغسـل الـذي كان لـدى صاحبـه مئـة عامـل لا يوجـد لديـه الآن منهـم عـشرون، والخيـاط الـذي يعمـل لـه أربعـون صانعـا لا

يستطيع الحصول الآن على أكثر من عشرة وهلم جرا ودواليك. وكثيرا ما سمعت المصدرين يتذمرون من طول فترة الشحن. يعقد الواحد منهم صفقة تجارية كبيرة فيعده مدير العمل بأنه سيبذل كل جهد في شحنها خلال سنة.

وقامت هناك مشاكل سياسية محلية من جراء هذا النقص في اليد العاملة. ومن هذه المشاكل تشغيل الأجانب المقيمين في بريطانيا واستيراد غيرهم أيضا. وقد حضر إلى لندن في الأسبوع الاخير من أكتوبر مئة فتاة من بنات دول البلطيق ليعملن في المستشفات الإنكليزية. وما يزال آلاف الأسرى من الألمان يعملون في الحقول وقد طلب الكثيرون منهم التجنس بالجنسية البريطانية وعدم العودة إلى بلادهم، وما تزال قضيتهم قيد النظر. ومشكلة المشاكل الحالية في هذا المضمار، المئة ألف بولوني الموجودون في بريطانيا الآن.. وهل يمنحون الجنسية البريطانية ويوزعون على المصانع فيسدون النقص في اليد العاملة وتنتعش الصناعات بالسرعة المطلوبة، على شريطة اشتراكهم في أية حرب قد تنخرط فيها البلاد في المستقبل؟ أم أن ترحيلهم وإرجاعهم إلى بلادهم خير وأبقى، فتخف بذلك أزمة المسكن والمأكل، وكلتاهما من معضلات الساعة، وتتحاشى البلاد في المستقبل القريب أو البعيد أزمات عمالية وتأثيرات اجتماعية قد تزيد في بلبلة السلطات وصعوبات الأهلين؟ هذه المشكلة هي موضوع مناقشة حادة في البرلمان الإنكليزي اليوم، وقد كثرت حولها الآراء، وتعددت وجهات النظر، وستبدي لنا الأسابيع القليلة المقبلة، ما يقر عليه القرار في هذه القضية المعقدة.

وبولونيا والبولونيون كانوا وما يزالون معضلة المعضلات وقضية القضايا منذ فجر التاريخ السياسي في أوروبا. وهنا تحضرني قصة لا بأس من سردها ترفيها عن القارئ بعد تلاوة هذا الفصل الجاف، وإن لم يكن لها علاقة مباشرة بموضوع الفصل.

يقال إن مجمعا علميا دوليا انتدب بعثة من أمم مختلفة من علماء الحيوان لدرس حياة الفيلة في أدغال الهند. ورجع أعضاء البعثة بعد ستة أشهر فقدم العالم الأميركي كتابا عنوانه «فيل المستقبل والتقدم الصناعي». وتبعه الإنكليزي وقدم مؤلفه وكان عنوانه «اختبارات علمية في صيد الفيلة». وتقدم الفرنسي بعد ذلك وقدم للمجمع طبعة ممتازة من مؤلفه الرقيق وعنوانه «أحلام الفيل ومشاكله الغرامية» وهنا التقى الألماني أمام المجمع نتيجة أبحاثه وكان كتابا مؤلفا من أربعة أجزاء، وعنوانه «أبحاث تمهيدية لدراسة حياة الفيل» وإذا بضجة وبخطى ثقيلة، وإذا بالعالم الروسي يتأبط اثني عشر مجلدا هي ما جادت به القريحة بعنوان ‹فلسفة الخلق في تكوين الفيل». وتبعه العالم البولوني يلهث وقد حمل على كتفه مجلدا ضخا ألقاه أمام المجمع ففتحه القوم وإذا بعنوانه «الفيل، والقضية البولونية».

هنا لندن!

•••

هل يمكنك أيها القارئ أن تتصور كتابا عن باريس لا ذكر فيه لبرج إيفل أو السوربون؟! وهل يعقل أن خطيبا يحدثك عن مصر فلا يذكر النيل أو الأزهر؟ إذن فكل حديث عن لندن لا ذكر فيه للإذاعة و»دار الاذاعة› ناقص من حيث المبدأ. ويعتقد كاتب هذه السطور أن مؤسستي الإذاعة والطيران تلعبان وستلعبان دورا خطيرا فيما بعد عالم الحرب، في حياتنا اليومية، حاضرها ومستقبلها. ولدى صاحبنا عشرة أسباب مهمة لتخصيص فصل ولو صغير عن هذا الموضوع الخطير، وعاشر هذه الأسباب أنه يتعاطى بنفسه صناعة الإذاعة في حياته العملية اليومية وفي هذا الكفاية.

أنشئت هيئة الإذاعة البريطانية سنة ١٩٢٧ بموجب مرسوم ملكي خاص، واستحصل أولو أمرها على الرخصة اللازمة من المراجع المختصة، وأصبحوا بذلك أصحاب الحق الوحيد في تعاطي صناعة الإذاعة في المملكة المتحدة. وكانت مدة الرخصة عشر سنوات قابلة للتجديد عند الطلب. وجددت الرخصة وأعيد إصدار المرسوم بعد ان تبنت الحكومة المحطة واحتضنتها. ولكنها ربطت بالمرسوم لائحة داخلية فيها شروط وقيود. ومن أبرز هذه القيود، أن المحطة لا تستطيع أن تبدي رأيها في المشاكل المحلية والسياسية الداخلية. أي أنها، بلغة الصحافة، لا حق لها في ‹كتابة افتتاحية». وحجة الحكومة أنها تقدم على ذلك «لحماية

الأمـة والسـلطات القائمـة مـن مؤسسـة ذات نفـوذ قـوي وسـلطان عظيـم وتأثـير شـديد في تكويـن الـرأي العـام وتوجيهـه».

ويـشرف عـلى إدارة المحطـة العامـة «مجلـس حـكام» مختلـف العـدد يتـولى أمـر تعيـين أعضائـه مجلـس الـوزراء. ويبلـغ عددهـم الآن السـبعة، وأنـزل هـذا العـدد إبـان الحـرب إلى اثنـين فقـط لتسـهيل سـير الأمـور وسرعـة البـت فيهـا. ويتوخـى في هـذا التعيـين أن يكـون الحـكام مـن ذوي الكفـاءات العموميـة الذيـن يتفهمـون المصلحـة العامـة، ويسـتطيعون القيـام بخدمتهـا والسـهر عليهـا، دون أي اعتبـار لعقائدهـم السياسـية أو لونهـم الحـزبي. وقـد بالغـت الحكومـات المتعاقبـة في التقيـد بنـص التوجيـه وغايتـه. فكانـت حكومـة المحافظـين تعـين حكامـا مـن العـمال، فتقابـل حكومـة العـمال اللباقـة بمثلهـا وتعـين حكامـا مـن المحافظـين. والمحطـة وحـدة مسـتقلة كل الاسـتقلال في إدارتهـا وماليتهـا وتشـكيلاتها ضمـن نطـاق مرسـومها وأنظمتهـا الخاصـة. ولهـا في ذلـك سياسـة عامـة محكمـة. ففـي الانتخابـات البرلمانيـة العامـة، مثـلا، تفسـح المجـال لـكل مـن الاحـزاب المتطاحنـة، بمـا فيهـا حـزب الحكـم القائـم، بـأن يـشرح لجمهـرة الناخبـين برنامجـه السـياسي الـذي يدخـل معممـة الانتخابـات عـلى أساسـه. وتتسـاوى بذلـك الأحـزاب مـن حيـث الفـترة والوقـت والموجـة. وكان مـا خصـص لـكل منهـا في الانتخابـات العامـة الأخـيرة ثلاثـين دقيقـة في إذاعـة المسـاء الأهليـة.

وعندمـا أعلنـت الحـرب الأخـيرة، وضعـت المحطـة تحـت تـصرف وزارة الاسـتعلامات لتوجيـه الجهـود وكان عليهـا أن تذيـع كل مـا ترسـله إليهـا

تلك الوزارة بأمر الوزير. وحدث أن أرسل الوزير في يوم من الأيام حديثا إلى المحطة كي تذيعه. فلم يستسغه القائمون على أمر الإذاعة وأعلنوا للوزير ذلك، فأصر، فأذيع الحديث. ولا بد وأن يكون الوزير قد شعر بعدها بشيء مما في الجو، فإذا بكتاب مفتوح منه في جريدة التايمز يعلن فيه بأن الحديث نفسه أذيع بطلب خاص منه شخصيا.

ولمحطة لندن امتيازات لا تتمتع بها أية محطة أخرى في العالم. فبالإضافة إلى استقلالها التام في العمل والإدارة، فهي المحتكرة الكبرى وصاحبة الحق الوحيد في تعاطي أمور الاذاعة في جميع أنحاء المملكة المتحدة. وهنا السر في قوة نفوذها وتأثيرها. ولها فروع في أكثر المقاطعات تدعى «المحطات الريفية الفرعية» وتعمل كلها تحت إشراف محطة لندن المباشر كأحد أقسامها الرئيسية. ومن المعروف عن هذه المحطة أنها لا تذيع الإعلانات ولو دفع أصحابها الملايين بعكس محطات فرنسا والولايات المتحدة.

ويمكنك أن تتحسس مبلغ النفوذ والتأثير اللذين تستطيع هذه المحطة التمتع بهما، في بلادها على الاقل، عندما تطلع على بعض الارقام. بلغ عدد رخص الراديو في المملكة المتحدة عشرة ملايين رخصة، فإذا علمت بأن نفوس المملكة أربعون مليونا وأن معدل عدد أفراد العائلة الواحدة أربعة أنفس، أدركت حالا أن هناك جهاز راديو في كل بيت من بيوت الإنكليز. ويسدد دخل الرخص، وهو جنيه للرخصة الواحدة سنويا، نفقات المحطة على الإذاعات الأهلية. وميزانيتها السنوية عشرة

ملايين جنيه استرليني. وتنفق المحطة مليونين من الجنيهات على الإذاعات الخارجية تقدمها الحكومة كهبة من الميزانية العامة.

والمقر الرئيسي للمحطة في العمارة الضخمة التي تعرف باسم «دار الإذاعة» وموقعها في قلب العاصمة: ونظرا لتوسعها الهائل خلال السنوات الأخيرة فقد وضعت الحكومة يدها على أربعين عمارة كبيرة في العاصمة تؤلف الآن مكاتب دار الإذاعة البريطانية. ويبلغ عدد موظفي هيئة الاذاعة البريطانية اثني عشر ألفا، هم زبدة ما في البلاد من علم وثقافة وفن. وذلك ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل الحرب. وقد بلغ أقصى ما قامت به من الأعمال في يوم واحد أنها أذاعت مئة وتسعة وأربعين ساعة إذاعة في أربع وعشرين ساعة وبستة وأربعين لغة، وكان ذلك في يوليو سنة ١٩٤٤. أما ما قامت به المحطة من الخدمات لمجهود الحلفاء الحربي فسيخصص له صفحات عديدة عندما يدون تاريخ هذه الحرب بشكله النهائي القطعي، ولكن الذي لا ريب فيه أنها عملت الكثير لإضعاف قوة المقاومة المعنوية بين صفوف دول المحور كما أنها استمرت طيلة سني الحرب على تغذية الروح المعنوية بين صفوف الحلفاء وتوجيه عناصر المقاومة السرية. ومنذ أسبوع أقامت السلطات في بلجيكا حفلة تكريم شائقة لرجال القسم البلجيكي بدار الإذاعة البريطانية إبان الحرب، لما أدوه من الخدمات الباهرة في سبيل الاحتفاظ بالروح المعنوية في بلجيكا، وتقويتها وتغذيتها، لاسيما بين عناصر المقاومة السرية، ويصدق هذا على جميع دول الحلفاء التي قامت بها المقاومات السرية تحت الاحتلال المحوري.

ويعمل القسم العربي بدار الإذاعة البريطانية بضاحية «أولدنهام»، وكان القصر الريفي للورد أولدنهام نفسه، فاشترته الحكومة. ويقع على بعد ثمانية عشر كيلومترا من لندن. ويحيط بالقصر من كل جانب أحراش وحدائق غناء تعد من أجمل بقع الريف الإنكليزي يذهب لمشاهدتها السواح كما يذهبون لمشاهدة المتاحف والآثار. ومما تمتاز به هذه الجنة الأرضية بقمة خاصة أمام القصر تحتوي على عدد هائل من مختلف أشجار العالم وكان علماء الطبيعة يأتون اليها للقيام بدراسات علمية.

وبعد أن ملأ صاحبنا رئتيه من الهواء النقي الشهي، وعينيه من جمال هذه الطبيعة الخلاب، في هدوء شامل عجيب، تنهد تنهيدة عميقة وتمتم لنفسه قائلا: «في مثل هذا الوسط وهذا المحيط تجود القرائح، ويظهر النبوغ، ويبرز الإنتاج الفكري والفني الرائع، ويتحسس المرء عبقرية شكسبير ويدرك كنه نبوغه عندما يزور بيته في «ستراتفورد أون أفون» ويرى بعينيه أين كتب شكسبير».

وتنهد صاحبنا ثانية، تنهيدة أعمق من الأولى، عندما تذكر موقع محطات مصر ويافا والقدس وقال أيضا لنفسه: «معذورون رجال هذه المحطات إن هم شحت قرائحهم وجمدت عقولهم وثلمت نفوسهم. فصراخ رجال البورصة المزعج المتواصل في تلك البقعة القائمة المكتظة من القاهرة يكفي لقتل كل حيوية في الجواميس فكيف في نفوس بني آدم. أما محطة يافا فيحدها شمالا مقبرة الروم الكاثوليك وغربا مقبرة

المسـلمين وشرقـا مقـبرة الأرمـن وجنوبـا أكـوام متكاتفـة مـن شـجر الصبـير القبيـح علـف البعـير ومـأوى العقـارب. وأمـا محطـة القـدس فعنـوان عمارتهـا الجغـرافي (بـين السـجن المركـزي ومدرسـة الطرشـان».

العودة

•••

وانتهت الرحلة، ولكل أجل كتاب، وحان وقت العودة، العودة إلى الوطن، الوطن الحلو، ولا شيء أحلى من الوطن في هذا الوجود كما يقول الإنكليز. وحزم صاحبنا حقائبه واستقل القطار إلى ليفربول، ومنها إلى ظهر السفينة. وودعتنا ليفربول بأشد مما استقبلتنا به من الغيوم القاتمة، والضباب الكثيف، والمطر الغزير والبرد الشديد. فغادرناها غير آسفين؛ لأننا نغادر مجهولا، إذ لم نر وجهها في الجيئة أو في الذهاب. وأقلعت بنا الباخرة تمخر عباب اليم، وسارت بسم الله مجراها ومرسيها. وأقبل الليل وحلك الظلام، فأوينا إلى مخادعنا لتأخذ أجسامنا قسطها من الراحة بعد أن دغدغها القطار والسفر فيه.

ونهضنا صباح اليوم التالي، وإذا بنا في عرض المحيط الأطلنطي. فاستنشقنا هواء البحر النقي الصافي، وتنفسنا الصعداء، فقد أصبحنا بعيدين عن اليابسة وما فيها من الجفاف، بعيدين عن التضييقات، وعن الانتظار في الصفوف، بعيدين عن القلة في هذا والعدم في ذاك، بعيدين عن النقط والكوبونات والحصر والتوزيع بعيدين عن الخبز الموحد ومساحيق الأغذية، بعيدين عن الضحى القاتم والضباب الكثيف، الأصفر منه والأسود، والزخات المفاجئة المسببة لشتى الارتباكات، بعيدين عن برد الليل المتسلل ومجاري الهواء المتسربة التي تحدث الآلام في النحور وفي الخصور، وفي الأنوف وفي الحلقوم. وكنا كلما قطعت بنا الباخرة فرسخا إلى الجنوب، نقترب من السماء

الصافية والشمس الساطعة والهواء النقي. وكان صاحبنا مستندا على قارب النجاة فوق ظهر الباخرة، يجيل الطرف في هذا المحيط الذي لا يحده شيء غير الأفق المجهول من كل جانب، وقد أخذته روعة البحر، وهدوء البحر، وصفاء البحر، فاستولى عليه شعور خفي فيه لذة للروح وارتياح في النفس، وكان شعور الشوق والحنين إلى الوطن. وكانت عاطفة لم يشعر بها منذ سنوات عشر لأنه لم يغترب طيلتها. حقا أنه سافر كثيرا خلال هذه السنوات إلى مصر والشام ولبنان وشرقي الأردن، ولكنه كان في ذلك ينتقل من وطن الى وطن، ومن إخوة إلى بني عمومة. أما خلال هذه الرحلة، فكثيرا ما كان يشعر بالغربة، وبالوحدة والوحشة. وبينا صاحبنا في قبضة هذه الهواجس والعواطف والمشاعر، وإذ به يتمتم لنفسه قائلا: أعطني وطني بما فيه وخذ الدنيا وما فيها. أعطني القدس، وسماء القدس، وشمس القدس، ومناخ القدس، وخذ لندن وما في لندن. أعطني مصر ولبنان، وخذ باريس ولوزان. أعطني قليلا من السعتر والزيت والفول المدمس، وخذ خنازير الدنيا بأجمعها. أعطني سيخا من الكباب وقبالته بعض المتبلات ولك ما في الكون من الروز بيف ومسلوق البطاطس. أعطني فنجان قهوة سكر قليل، وخذ شاي الساعة الخامسة والسادسة والسابعة وكل ساعات الليل والنهار. أعطني الأهل والخلان، أعطني الزملاء والإخوان. أعطني «الدفاع» و»فلسطين» وخذ التايمز والديلي ميل. أعطني شوقي، وخذ شكسبير، أعطني الشيخ زكريا أحمد والسنباطي، وخذ بيتهوفن وموزار. أعطني أم كلثوم وأسمهان وخذ مغنيات أوروبا بأجمعهن. أعطني وطني وخذ ما شئت.

مصر

•••

وترسو بنا الباخرة في ميناء بورسعيد، ويحملنا منها القطار إلى القاهرة وتطأ قدمانا أرض الكنانة، فتعود بنا الذكريات إلى زيارات سابقة متعددة لهذا البلد الطيب، بلد صلاح الدين والفاروق، فتمتلي النفس بهجة واغتباطا ويقضي صاحبنا بضعة عشر يوما في مصر متجولا ههنا وههنا، فتتحرك فيه عاطفة الميل إلى الكتابة، وتقع العين على مذكرات حديثة دونت خلال زيارة سابقة. ويتلو صاحبنا هذه المذكرات مرة وثانية، ويحاول التعديل فيها والتبديل فلا يستطيع، فمصر الخالدة، خالدة في كل شيء. وقد رأى في هذه المذكرات صورا من الحياة في مصر يراها الزائر في كل حين. وهي هي اليوم كما كانت قبل سنوات وكما ستكون بعد سنوات. اتل معه بعض هذه المذكرات كما دونت بالحرف واحكم لنفسك إن كان على خطأ: «نحن الآن في مصر، أرض الكنانة، وادي النيل، في القاهرة؛ الجوهرة المتألقة في صدر أفريقيا، مدينة الأسحار والأسرار، وبوتقة العجائب والغرائب» يقول كبلنغ، الشاعر الإنكليزي المعلوم، في قصيدته المشهورة «الشرق شرق، والغرب غرب، والتوأمان لن يلتقيا» وتؤلف فرياستارك، الرحالة المستشرقة المعروفة، كتابا تسميه «الشرق غرب».

هذا شاعر إنكليزي هجر بلاده غلاما يافعا إلى الشرق فقطن الهند ونشأ فيها، وعاش ودرس ونثر ونظم، وهذه كاتبة إنكليزية استهوتها أعاصير الصحراء، واجتذبتها شمس الجزيرة، فهجرت بلدها وتاهت

في فيافي قحطان. وهذا وتلك يدعيان التوصل إلى أغوار الشرق وفك طلاسمه. وقد ضل صاحبنا وتعصب، كما بالغت صاحبتنا في التفاؤل واندفعت. والحقيقة التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها هي أن الشرق شرق والغرب غرب، ولكنهما يلتقيان ويجتمعان، بل ويجتمعان كثيرا هنا في هذا البلد الطيب. وينتج عن اجتماعهما هذا جو وعقلية وتفكير ولغة وحالات لا ترى مثيلا لها في العالم. هاك على سبيل المثال قائمة المواعيد للغداء في أسبوع واحد: الإثنين مع ضابط بريطاني كبير يشغل منصبا مدنيا، الثلاثاء مع شاب إسباني يشتغل في شركة سينمائية الفرنسية تعمل لحساب الجيش الأميركي، الأربعاء أستاذ جامعة مصري، الخميس محرر جريدة أميركية، الجمعة وزير عراقي، السبت دبلوماسي تركي، الأحد أرتيسيت في جنينة الحيوانات على ضفاف بركة البط. هذا في النهار أما في الليل فمن «ألاسكا» إلى «جوهانسبرج» ومن «كازابلانكا» إلى «يوكوهاما». وكفى الله القراء شر التفاصيل.

هذه هي القاهرة، وقد ألف المتقدمون والمتأخرون عنها المجلدات الضخمة بالعشرات، بل بالمئات. ونظمت في مديحها ووصفها عيون القصائد التي تملأ الدواوين، فما عساي أن أكتب عنها؟ ولكن هل لمثلي أن يمكث فيها بضعة أسابيع دون أن يدون ولو بضع ملاحظات عابرة خاطفة على بعض الظاهرات التي لا يمكن إلا وأن تلفت نظر سائح «حُشَرِي» من طرازي؟ طبعا لا يجوز. إذن، إليك أيها القارئ بعض ما رأيت وما خبرت، وهي كما «بعض ملاحظات»، والبعض

القليل جدا من مجموعة هائلة. إذ كيف يمكن الحصر في بلد يعيش الأناسي في بعض أحيائه في العصر الحجري، بينما يعيش البعض الآخر في أحياء أخرى في القرن الحادي والعشرين.

المألوف في بلدان هذا الكون أجمع أن يكون المرء نحيفا ممشوق القامة، فإذا سمن أحدهم وأفرط في السمن، نعته الآخرون بالسمنة كعاهة أو علامة فارقة أو شيء شاذ، كقولهم مثلا فلان أعرج، وفلان أقرع، وفلان محدودب الظهر إلى آخر القائمة... أما هنا فالأمر على عكس ذلك، إذ المألوف أن يكون المرء مدججا بطبقات الشحم واللحم، لا ينقص قطر الكرش المهيب عن أربعة أمتار على الأقل. فإذا ما ضربت النحافة أحدهم أصبح مضرب المثل. أما السبب في كل ذلك، فسل عنه الحاتي والمجاتي، وما ينتج عن الإكثار من زيارتهما من تضخم في الكبد، وتمدد في المعدة، وتقلص في الحيوية، وتراكم طبقات الشحم على القلب وغير القلب.

وبعد أن يمتلي بصرك من عناصر الجنس اللطيف من ذوات الوزن الثقيل، من المهفهفات المعججات اللواتي يتبخترن على أرصفة ميدان إبراهيم باشا ثم العتبة الخضراء، فيجبرن نظرك على التأرجح بحركة تشبه رقاص الساعة، يصيبك من جرائها صداع في الراس، واضطراب في عضلات العينين، تجلس هنيهة لتستريح. ثم تنهض فتستمر في السير متخطيا هذين الميدانين إلى بقعة بلدية من العاصمة. فإذا ما تجولت في أنحاء باب الخلق والموسكي، وما بينهما وما حولها.. لفت نظرك قبل كل شيء وأكثر من كل شيء أسماء بعض الشوارع، لا سيما الأزقة

والـدروب. وقـد يكـون لهـذه الأسـماء قصـة، وقـد يكـون لهـا مناسـبات، ولكنهـا طريفـة وطريفـة جـدا. وهـاك أيهـا القـارئ اللبيـب قائمـة صغـيرة منهـا بـدون تعليـق:

شـارع بـين النهديـن، شـارع الشـيخ العبيـط، شـارع البهلـوان، شـارع مكـسر الخشـب، درب أبـو لحـاف، درب القـرود، شـقة ثعبـان، درب الزيـر المعلـق، درب ضلـع السـمكة، درب المزيـن، درب المهابيـل، درب المكسـحين، بـير المش، سـكة حمـير، بحـر الصبابـة، درب العـوالم، حـوش البقـر، درب المقشـات.

الآن وقـد تعرفـت إلى شـوارع البلـد، أو بعضهـا عـلى الأقـل، يمكنـك أن تـضرب المواعيـد مـع الإخـوان والخـلان. أمـا أن هـذه المواعيـد تتحقـق في أوقاتهـا أو لا تتحقـق مطلقـا، فتلـك حكايـة لا علاقـة لهـا قـط بالمواعيـد نفسـها، إذ إن المواعيـد هنـا أسـطورة أو خرافـة، كخرافـة الغـول والعنقـاء.

وقـد قـال الكاتـب اللبـق فكـري أباظـة في مقـال لـه يعالـج فيـه أزمـة السـاعات «ومـا الحاجـة إلى السـاعات في بلـد لا يعـرف أهلـه للمواعيـد معنـى».

طلبـت سـيدة المقابلـة للبحـث في بعـض الأعـمال، فسـألتها باحـترام عـن السـاعة التـي توافقهـا هـي، فأجابـت «الرابعـة تمامـا» فانتظـرت: أربعـة ونصـف، خمسـة، خمسـة ونصـف، سـتة... وإذا بهـا تتبخـتر عـلى شرفـة الفنـدق ولم يبـق للسـابعة إلا بضـع دقائـق. فلـم أتمالـك مـن إظهـار بعـض المـرارة عـلى هـذا التأخـر الـذي لا مـبرر لـه، وإذا بهـا تقـول بمنتهـى الرقـة والطهـارة «شـوف حضرتـك، أنـا أصـلي مـا بجيـش عـلى المواعيـد أبـدا، إنمـا جيـت اليـوم بـس علشـان خاطـرك» وعندهـا انحنيـت حتـى كادت جبهتـي

تلمس الأرض بين قدميها، للتعبير عن عظيم امتناني وتقديري لما غمرتني به من العطف والاهتمام. وبعد بضعة عشر اختبارا من هذا الطراز، شطبت على عنصر المواعيد في برنامج حياتي اليومية، وخليتها على الله، والله.

ولكنها مصر، العزيزة على القلوب، المحببة إلى النفوس، بقضها وقضيضها، بغثها وسمينها، بحلوها ومرها. وستظل كذلك على كر السنين وتعاقب الأجيال والأحقاب. ولا يزور صاحبنا مصر مرة إلا ويشعر بالسرور، والمرح والحبور. وكلما فارقها جذبته إليها بشدة فرجع برغبة تعفى على مثيلتها في الزيارة السابقة. وما زارها مرة إلا وتذكر أنشودة جوزفين بيكر الخالدة التي لم تكد تفردها حتى كانت على لسان كل فرنسي في الكون، وكان مطلعها «لي في الكون وطنان، بلدي وباريس»، وكان هذا لسان حال صاحبنا في كل حين «لي في بلاد العروبة وطنان؛ بلدي والقاهرة».

الخاتمة

•••

وقد طلبنا إلى «صاحبنا» بعيد عودته أن يوجه كلمة حول موضوع السفر والتجوال إلى بني قومه فقال: «

أيها العربي!

ذكرا كنت أم أنثى، شيخا أم يافعا، غنيا أم فقيرا، كبيرا أم صغيرا!

سافر وسافر ثم سافر. سافر إلى كل قطر ومكان، وتعرف إلى كل شيء وإنسان. ففي السفر الخير كل الخير. في السفر صحة واختبار، وفي السفر معرفة واعتبار. فيه توسيع أفق المدارك، وفيه مفاتيح السبل والمسالك. والسفر اليوم متيسر للفقير الصغير، كما هو متيسر للغني الكبير. وإذا ما يسر الله لك وسافرت، فلا تقبع في زاوية من حجرتك وتقول هذا لا أحبه، وذاك لا أفهمه، وذلك لا أستطيع الحصول عليه، بل انزل إلى الميدان، واخرط نفسك في معمعة الحياة. اسأل وتحر وابحث واستفهم عن كل شيء وتعلم كل شيء. فإذا ما تكونت فيك الإرادة، وجدت السبيل، وإذا ما سرت على الدرب وصلت الهدف. فترجع إلى بلدك وقومك عضوا نافعا مفيدا عاملا منتجا، تساعد على رفع مستوى أمتك، وتجعل لها من شخصك دعامة قوية تمكنها من الصمود في وجه شدائد الحياة ومتاعبها إذا جد الجد؟ أو تزيد في سعادتها ورفاهيتها إذا ما ابتسمت لنا الدنيا ذات يوم، فالخير والفائدة لك ولأمتك في الحالتين، وبهذا تصيب الهدف وتدرك الغاية، وعليه، فلا تقبع في عقر دارك لتأكل وتشرب وتنام، ولا تغادر بيتك إلا لمقر عملك وبالعكس. فقد خلقك

اللـه لتحيـا حيـاة سـعيدة مليئـة، وخلـق لـك هـذه الدنيـا لتشـاهد مـا فيهـا ومـن فيهـا، ولتتمتـع بخيراتهـا ومسراتهـا. فانهـض وسـافر وعـش وتمتـع قبـل أن يـدركك الأجـل. فـإن الأسـفار بمـا فيهـا، تنشـطك وتبهجـك، وتزيـد في مناعتـك وقـوة احتمالـك، وتقـوي صحتـك، وتنمـي عقلـك وتفكيرك، وتطيـل في عمـرك، وتطـرد عنـك الشـيخوخة والهـرم، وتجعلـك تعيـش سـني حياتـك عـلى أروع مـا يجـب أن يعيشـها المـرء، تعلـم كيـف تعيـش ولا تدفـن نفسـك حيـا! فقـد صرح فيلسـوف العـصر وحكيـم الدهـر برنـارد شـو إلى جمهـرة مـن الصحفيـين الأجانـب عندمـا ذهبـوا إلى بيتـه الريفـي لتهنئتـه بعيـد ميـلاده التسـعين، فأجابهـم بحريتـه المعهـودة جوابـا عـلى سـؤال وجهـوه إليـه حـول نشـاطه العجيـب في شـيخوخته المترامية الأطـراف: « إن النـاس يموتـون لأنهـم لا يعرفـون كيـف يعيشـون».

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان